كتب ثقافية

محمد الرسول

قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى

قرآن كريم

دراسة تحليلية لشخصية محمد وحياته

الجزء الاول

بقلم

أنور الجندي

كتب ثقافية
الكتاب ٣٩



"قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى"
قرآن كريم

دراسة تحليلية لشخصية محمد وحياته

الجزء الاول

بقلم

أنور الجندي

مقدمة

كانت شخصية محمد « صلى الله عليه وسلم » الإنسانية مدرسة للرجولة وقدوة للإنسان من حيث هو « إنسان » بتصرفاته وحكمته وضبط أعصابه وسلامة صدره وإيمانه بفكرته . كما هو قدوة للزعماء والقادة فى معاملة خصومه وأنصاره على السواء .

وستظل حياة محمد مثلا أعلى لحياة الإنسان الكامل الذى جمع فى شخصه كمال الشخصية . العابد المؤمن . والمحارب القوى . والقاضى العادل . والحاكم اليقظ فقد استطاع أن يمتلك قيادة الجماعة بأرفع ما امتلكها زعيم أو قائد .

وهو حبيب إلى قلوب العرب جميعاً . ليس باعتباره زعيم دعوة دينية : وإنما باعتباره سيد من سادات العرب . ونخر من أمجاد تاريخهم . بل لقد أصبح حبيباً إلى قلوب عدد كبير من عباقرة الفرنجة وأعلامهم .

«ومحمد بن عبد الله» بعد هذا كله بطل عربى كبير ، هو موضع

الاعزاز من المسلمين والمسيحيين على السواء باعتبار أن بطولته هى جزء من عظمة الأمة العربية التى تحقق لها السيطرة والتوجيه للعالم حقبة طويلة من الزمن كانت خلالها حامية الحضارة والأمينة عليها وذات الفضل الواضح فى زيادتها والإضافة إليها .

ولقد حرصت أن أدرس « محمد الإنسان » : أدرس شخصيته بأسلوب جديد يقوم فى أغلبه على أساس عرض نماذج وصور من هذه الحياة دون تعليق كبير عليها تاركا لهذه الصور وحدها قوة النفاذ إلى النفس المحبة لعظمة نفس كبيرة . ويكفى أن تعرضَ هذه الوقائع عرضاً جديداً بطريقة مبتكرة لتحكى بنفسها قصة الحياة الإنسانية فى شخصية محمد .

ولقد مضيت أحقق هذا الجانب الذى أغفله الكثير ممن تناولوا السيرة وهو الجانب النفسى والشخصى الخاص .

وصورت كيف كان النبي إنساناً يأخذ حظه من الحياة ويتصرف فى الأمور كما يتصرف البشر . وكان فى صميم طبيعته البشرية الرجل الذى يتناول الأمور بعقله ويقضى فيها بتجربته الخاصة .

وأنه قبل أن يكون نبياً ـ وفى خلال أربعين سنةقبل بعثته ـ كان إنسانا محبوبا موصوفاً بالأمانة والخلق . أوتى الشمائل الحلوة فى حديثه واتصاله بالناس حتى لقد ارتضته القبائل جميعاً حكما ، عندما دخل الكعبة وهم يتنازعون فى شأن الحجر الأسود . ورضيته خديجة زوجاً لها ووصفته بأنه يحمل الكل ويمين على نوائب الدهر .

لقد ذهب كثير من المؤرخين إلى المبالغة فى تجسيم عظمة شخصية محمد ولم يكن تاريخه صلى الله عليه وسلم فى حاجة إلى مثل هذا . فإن عظمته فى بساطته وقربه من التصرف الإنسانى ، وبعده عن الغلواء . كما ذهب البعض الآخر إلى الاستزادة فى قدر الصلة بينه وبين السماء حتى كاد هذا الجانب أن يطغى على جانبه الإنسانى الضخم . وفى ذلك ما فيه من تجاهل للطبيعة الإنسانية . وتحامل على الرجل من حيث هو إنسان وبشر .

لقد كان محمد قبل كل شىء إنساناً ممتازاً ، أوتى قوةالشخصية هذه القوة التى تسيطر بالجاذبية المودعة فيها . وبالإقناع والحب والإشعاع لا بالقسر ولا بالقوة . كما أوتى الجرأة والبلاغةوالمرونة

والحكمة : وهى صفات إنسانية كانت بعيدة الأثر فى قدرته على أداء رسالته ·

وإذا قيل إن النصر يرجع إلى الإيمان فإن الإيمان إنما يرجع إلى الإلتفاف حول القائد وافتدائه والثقة به وهذا لا يتأتى إلا إذا كان الحب متبادلا بينه وبين جنده · ولقد كان أصحاب محمداً يحبونه إلى أبلغ حدود الحب ويفتدونه غاية الفداء · ويرجع هذا إلى شخصيته أولا .

وكذلك كان محمد على مبلغ الخصومة التى كانت بينه وبين أعدائه موضع الاحترام والثقة والمهابة منهم · كانوا يرون فيه الرجل الصادق الذى لا يكذب والأمين الذى لا يخون والوفى الذى لا يغدر .

وقد تجلى هذا فى موقفهم منه قبل الدعوة فى شأن الحجر الأسود . وفى أول البعثة عندما ناداهم على الصفا · وفى فتح مكة عندما عفا عنهم وأطلقهم وهو أقدر ما يكون عليهم · ذلك هو محمد الإنسان فى شخصيته التى نعرضها فى هذا الكتاب .

أنور الجندى

قصة التاريخ

« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم .

كنت نبياً وآدم بين الماء والطين . إنى عبد الله وخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته . إنى دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمى » .

[محمد صلى الله عليه وسلم]

(١)

ولد يتيما من الأب . وماتت أمه وهو طفل . وتنقل بين كفالة جده عبد المطلب . وعمه أبو طالب : وأرضعته حليمة بنت ذويئبةالسعدية ، بعد أن أعرضت عنه المراضع ليتمه ، وقد ترددت بين أن تأخذه وأن تدعه . حتى إذا أظعنت كرهت أن ترجع بغير رضيع . وقالت : والله لأذهبن إلى هذا اليتيم ولآخذنه . وقال زوجها : لا عليك أن تفعلى . وعسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

وأقام صلى الله عليه وسلم بالصحراء فى بنى سعد إلى الخامسة من عمره حتى كان يقول فيما بعد لأصحابه : «أنا أعربكم . أنا قرشى، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر » .

رحل إلى الشام فى الثانية عشرة من عمره ، واشترك فى حرب الفجار ، وجمع السهام التى تقع من هوازن » ودفعها إلى أعمامه ، ثم حمل السهام ، ثم رمى السهام بنفسه .

واشترك فى حلف الفضول ، وكان يقول : « ما أحب أن لى

بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم ، ولو دعيت به لأجبت » .

ورعى الرسول صلى الله عليه وسلم الغنم ، وكان يقول « ما بعث الله نبياً إلا راعى غنم » .

* * *

ثم كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم استنبىء على رأس الأربعين ، وألقيت على قلبه كلمة الحق ، لأول مرة فى غار حراء ، فكان الإسلام دعوة فى قلب « فرد » .

وأرسله الله تعالى إلى قومه داعياً إلى الإسلام ببطن مكة من الجزيرة العربية ، وكانت مكة على الوثنية المخرقة من عبادة الأصنام فأسر بالدعوة حتى أذن الله له أن يجهر بها . فدعا عشيرته الأقربين ثم أذاع الدعوة فى الناس جميعاً ، فاكتمل له فى ست سنوات أربعين رجلا إلا واحداً .

وقد أخذته قريش بالمساءة . فما تركت سلاحاً من أسلحة الاضطهاد إلا اصطنعته . حاربته باللسان واليد والقاء التراب

والروث، وتعذيب اتباعه فما ضجر لذلك، بل استقبله صابراً محتسباً، مؤمناً بتأييد ربه ونصره .

والوحى رواح غداء ، بآى الذكر الحكيم ، يثبت به فؤاده ويرسل إليه مزيداً من التأسى والاصطبار. ويروى له ما كان من جهاد الأنبياء والرسل وذوى العزم – مع الناس من قبل — وما لقى هؤلاء وأولئك من تعذيب واضطهاد ، فصبروا على ما أوذوا حتى أتاهم نصر الله .

« إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » ذلك هو نذير النبوة الأولى « لتكذبن ولتؤذين ولتخرجن » وهذا هو نذيرها الثانى .

ثم ماذا ؟ .

حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا . أتاهم نصرنا»

وحاولت قريش مع رسول الله المحاولات . ترده عما يدعو إليه ، تعمد إلى اللين تارة وإلى التهديد تارات . احتكمت إلى عمه فى أمره مرات . وساومته على أن تجعله ملكا أو غنياً ، فكان رده تلاوة آيات من القرآن ، كانت موضع التأثير البالغ فى نفس مساومه ، فمضى على أثرها مذهولا مأخوذاً .

* * *

واشتدت وطأة قريش على محمد وأصحابه ، لما رأت من كثرة أتباعه فتآمرت على عقد « مقاطعة اقتصادية » قاسية ، كتبت بها صحيفة علقت فى جوف الكعبة ، وحصرت بها محمداً وأصحابه فى « شعاب » مكة ثلاث سنوات . لا يبيعون ولا يبتاعون ، كان طبيعياً بعدها أن يأمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة علهم يجدوا بها حظاً من الأمن والحرية . فهاجر فريق منهم فاراً بدينه من طغيان قريش .

ولم يقف أمر الاضطهاد عند هذا الحد . . بل تعداه إلى أشد حالاته بعد موت أبو طالب وخديجة . وانتهى ذلك إلى هجرة رسول الله إلى الطائف . فوجد من أهلها أقسى مما لقى من قريش عسفاً ومساءة ، فقد تألبوا على قتله ، فلما انصرف شقوه بالأحجار فى عقبيه الشريفين حتى دميتا ، فلما اشتد به ، جلس يستجمع قواه . ودعا دعاءه المعروف « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس » واستمع إليه جن نصيبين فأسلموا ، بعد أن استمعوا إلى القرآن ، وأقام بنخله أياما قبل أن يعود إلى مكة ، وقال له رفيقه زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم مكة وقد أخرجوك ،

قال يا زيد : إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً . وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

وامتدت أعوام الاضطهاد بالمسلمين قبل الهجرة إلى المدينة ثلاثة عشر عاما منذ أذن بالدعوة ، وامتدت مع هذه الأعوام صور العنت فى مختلف ألوانه وصوره ، صباح مساء ، ما يزعزع ذلك من إيمانه وصحبه شيئاً ، بل كان يزيدهم قوة وإيماناً وصبراً ويقيناً ، وهو بين ظهرانى المسلمين ، يلقاهم فى ابتسامته الكريمة ، وبشاشته الرضية ويذكرهم بوعد الله بالنصر وإنه لآت .

(٢)

ودهشت قريش لأمر محمد وأمر أتباعه ، وأغراها هذا الصبر والثبات على المحن ، إلى أن تسترسل فى غيها ، وتزداد فى إعناتها ، وقريش مع هذا كله تعلم صدق « محمد » ؛ لكن كبرياءها وتمسكها بمخلفات الآباء من مجد وهمى ، ظل يصرفها عنه صرفا ، ويزيدها إلى إضطهاده دفعا ، وهى تتعلل إلى ذلك بالعلل « أنؤمن لك واتبعك الأرزلون » إنه التعصب البالغ لمخلفات الآباء ، والحقد البالغ على ما أوتى محمد « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وهم مع هذا الحقد يتسللون إلى مصلى رسول الله فيستمعون إلى القرآن ليلة فليلة .

ثم مضى كل فى طريقه ، محمد دائب على إبلاغ دعوته لا يضيره من أمر هذا التآمر شيئا . وقريش ساعية فى طريقها تبحث عن الوسائل التى ترد بها الناس عن دعوة الحق ، أو تقضى بها على محمد وأمره وصحبه .. حتى أسرى به صلى الله عليه وسلم ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى السماء ، ثم ما لبث

أن عاد إلى فراشه قبل أن يشرق الصباح ، وقد فرض عليه ربه الصلاة ، فلما أصبح أخبر الناس فاشتد تـكذيبهم له وارتابت قريش لحديثه ، وأخذ فريق منهم يسألونه عن أمر بيت المقدس وصفته وهو يجيبهم ، وما يقنعهم ذلك ، أو يرسل إلى قلوبهم بصيص من الإيمان بدعوة الله .

وقد ارتد عن الإسلام بعد هذا الحديث فريق من ضعاف الإيمان الذين أصابت نفوسهم الريب فى أمر الإسراء والمعراج . وما لبث أمر الدعوة الإسلامية أن تكشف عن ضياء جديد ، يأتى من طريق « يثرب » فقد أخذ محمد يعرض نفسه على القبائل حتى جاء سبعة من أهلها . التقوا به عند العقبة ، فلما سمعوا منه قالوا : والله ان هذا هو الذى تواعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم اليه .

فلما انصرفوا إلى قومهم ، وافوا الموسم عام قابل وهم اثنى عشر ، فبايعهم رسول الله بيعة العقبة الأولى ، وبعث معهم أول سفير فى الإسلام « مصعب بن عمير »

فلما استدار العام ، وأقبل الموسم ، وآفى ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتان ، واجتمع بهم رسول الله فى هزيع من الليل ، فبايعوا البيعة الـكبرى :

فلمـــا عادوا إلى يثرب أذن محمد لأصحابه بالهجرة فـكان بين أولهم وآخرهم أكثر من عام . فجعلوا يترافقون بالمـال والمظهر ، وكان من أولهم هجرة أبو مسلمة عبد الله بن عبد الله ، وعمار بن ياسر ، وسعد بن أبي وقاص . وابن مسعود ، وبلال ، وآخرهم هجرة رسول الله وأبو بكر وعلى بن أبى طالب .

وقد ظل رسول الله مقيما فى مكة حتى هاجر أتباعه فلم يكن إلا آخر من هاجر منهم .

وأذن الله لرسوله فى الهجرة بعدأن تجمعت قريش حول داره تحاول أن تقتله « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

وخرج فألقى عليهم التراب . ومضى إلى بيت صاحبه «الصديق» فركبا إلى غار ثور . فاختبئا فيه ثلاثة أيام ، وقريش تنهب الأرض نهباً ، وتتبع الآثار ، وتعرض المروض ، وتصل إلى باب الغار ، ثم ترتد عنه ، وقد غشاه العنكبوت وباض على بابه الحمام .

« الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذهما فى الغار ، إذيقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا ، فأنزل

الله سكينته عليه . وأيده بجنودلم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ».

وفى يوم الاثنين الأغر « الثانى عشر من ربيع الأنور » على رأس ثلاث عشر سنة من البعثة ، نزل إلى جانب الحرة ، فمضى فى طريقه ومعه صاحبه حتى أشرف على « يثرب » .

وكانت طوائف المؤمنين من المهاجرين والأنصار تخرج كل يوم إلى ظاهر المدينة تنتظر مقدمه فاذا هى ذات يوم ، وقد صاح اليهودى مناديا : « يا بنى قيله ، هذا : جدكم الذى تنتظرون قدجاء » ومضى فى طريقه ، كل قبيلة تحاول أن تعرض عليه نفسها ليأوى إليها ، وتنادى هلم إلى المنعة والقوة والثروة يارسول الله فيقول لهم خيرا ، وناقته ماضية فى طريقها ، وقد أرخى زمامها ، فلم تزل سائرة به حتى بركت بمربد بنى سهل وسهيل من بنى النجار ، ومن مبركها بنى النبى مسجده ، وعمل فيه بيديه ، ثم بنى مساكنه إلى جواره ، وأقام رسول الله ببيت أبى أيوب الأنصارى سبعة أشهر .

وبدأ عمله فى المدينة بكتابة أمان وموادعة لليهود ، ويعد هذا الأمان من أعظم وثائق التاريخ الإسلامى ،

وآخى بين تسعين رجلا من المهاجرين والأنصار ، وظل الأخاء مقدما على القرابة ، حتى اشتد ساعد الدعوة فنسخ التوارث بالمؤاخاة بعد « بدر » .

(٣)

باستقراره في المدينة انتقل الإسلام إلى مرحلته الطبيعية « مرحلة الدولة » القائمة على النظام القرآني ، ومن ثم تمت صلاة المقيم أربعاً بعد أن كانت ركعتين . وفرضت الزكاة ، وأذن الله بالقتال ، « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير » .

وقامت الدولة الإسلامية الجديدة على قواعد العدالة والاخاء وكفالة الدم والمال والعرض . ثم أذن للصلاة ، وأسلم عبد الله ابن سلام من أكبر أحبار اليهود ، وحاول اليهود الوقيعة بين الأوس والخزرج، بعد أن جمعهما الله على الإسلام، وصرف الله الكعبة إلى مكة بعد أن صلى المسلمون إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً بعد الهجرة .

وبدأت عصبة المسلمين تواجه صراعاً جديداً بينها وبين خصومها : صراعا من نوع آخر يختلف عما لقي المسلمون بمكة فقد كان في المدينة اليهود ، وهم قوم جدلون خصمون ، وقد طال

جدلهم ، وطال بهم التآمر ، بعد أن أظهر الله أمر رسوله .

منذ فرض الله القتال ، والسرايا الإسلامية لاتنقطع . وقد بدأها بعث رسول الله لعمه حمزة بن عبد المطلب . فى ثلاثمائة ، إلى ناحية « العيص » على رأس ثمانية أشهر من الهجرة ، وكان أول من رمى بسهم فى الإسلام : سعد بن أبى وقاص ، فى سرية عبيد الله بن الحارث .

وأخذ المسلمون يترصدون عير قريش ، وتوالت سراياهم . بل أن الرسول خرج بنفسه على رأس اثنى عشر شهراً من مقدمة المدينة وسار إلى الأبواء ثم خرج بعد ذلك مرتين أو ثلاث

وقد كانت هذه السرايا تدريباً وإعداداً للجيش الإسلامى وترصداً لعير قريش . فلما خرج أبو سفيان بقافلته الضخمة ترقبه المسلمون حتى إذا أقبل عائداً من الشام ، ندب رسول الله المسلمين لها ، وقال : هذه عير قريش فاخرجوا إليها . لعل الله ان ينفلكموها ان الله وعدنى إحدى الطائفتين : العير أو النفير

فخرج محمد لثمان خلون من رمضان من السنة الثانية من

الهجرة بعد أن استعمل على المدينة « أبا لبابه » وجعل عمرو بن أم مكتوم على الصلاة . واعتقب كل ثلاثة من المسلمين بعيراً . وكان رفيقا رسول الله : على بن أبى طالب. ومرثد بن أبى مرثد الغنوى. وقد استأذنا رسول الله فى أن يظل راكباً بعد أن قطع مرحلته ، فأبى عليهما وقال : ما أنتما بأقوى منى ، وما أنا بأقل حاجة إلى الأجر منكما .

وأخذ رسول الله يبث عيونه فى حصافة القائد الخبير ويتنطس الأخبار ، فلما وصل المسلمون أدنى ماء بدر تبينوا أن أبا سيفيان اتخذ طريقاً مغايراً ، فقد حاذى سيف البحر ومضى بالعير فى الوقت الذى خرجت فية قريش تدفع عن قافلتها عدوان المسلمين ومن ثم تغير وجه الأمر ، من العير والغنيمة ، إلى ذات الشوكه والحرب .

واستشار صحابته فتكلموا واحداً بعد واحد ، ورسول الله مايزال يقول عبارته الخالدة « أشيروا على أيها الناس » ومن ثم وثب « سعد بن معاذ » وقد أراده رسول الله ، وأحب أن يعرف رأيه ورأى أصحابه ، من الأنصار الذين بايعوا يوم العقبة على أن يمنعوا رسول الله فى حدود مدينتهم ولم يتعدوها بعد .

فقال كلاما طويلا خلاصته النصر والتأييد والنصرة ، ومن

ثم نزل المسلمون بدراً وأفطر الصائمون ، ونشبت الحرب ، وأيد الله رسوله بالآيات والملائكة والمطر .

والتقى الجمعان صبيحة الجمعة لسبعة عشر خلت من رمضان ، وقد أمد الله المسلمين بالنصر . وقتل بلال معذبه وواضع الحجر على صدره « امية بن خلف » وأخذ رسول الله حفنة من الحصباء فرمى بها قريش ؛ وهو يقول « شاهت الوجوه » ونصر الله المسلمين نصراً مؤزراً ، وأذل الله ببدر رقاب المشركين

ورأى رسول الله فى الأسرى رأيا ، وأنزل الله أمره « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم »

وقد ألقى نصر الله للمسلمين فى بدر ، الفزع والرعب فى قلوب القبائل والبطون ، ومن ثم بدأ اليهود يأتمرون ، فأخذهم رسول الله بالقوة ، بعد أن لم تفلح المهادنة ، فقتل المسلمون منهم أبو عفك وعصماء وكعب بن الأشرف . وقد كانوا يعيبون الإسلام ويؤذون النبى .

ثم حاصر المسلمون بنى قنيقاع فأجلوهم عن المدينة

(٤)

ثم بدأت قريش تتجهز للثأر من بدر ، وتهيأ لقتال المسلمين وقد سارت جموعهم إلى المدينة ، وبلغ خبرها رسول الله قبل أن تتحرك . فشاور أصحابه فقال أغلبهم بالتحصن بالمدينة العذراء التى لم تفص على أهلها قط . ولكن فريقا ممن لم يشهدوا بدراً أحبوا أن يخرجوا إلى العدو حتى لا يظن أنهم كرهوا الخروج أو جبنوا عنه .

وخرج محمد وقدلبس درعه وتقلد سيفه . وقد تراجع المسلمون إلى الرأى القائل بالبقاء فى المدينة فقال النبى : « قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم . وما ينبغى لنبى إذ لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . انظروا ما آمركم به فاتبعوه . والنصر لكم ما صبرتم » .

وخرج المسلمون إلى « أحد » وقد انفصلت كتيبة ابن سلول فقفلت راجعة منخذلة . وكان ذلك من الخير فلا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك .

والتقى الجمعان بعد أن وضع رسول الله الرماة فوق الجبل ، وأمرهم ألا يبرحوا أماكنهم ، انتصر المسلمون أو هزموا . وقاتل المسلمون مستبسلين حتى إذا ظهرت علائم النصر ، وبدأ المسلمون يغنمون ، عندئذ ترك الرماة أماكنهم واهتبلها « خالد » فرصة فأغار على الباقين منهم فقتلهم . ودار برجاله وراء جيش المسلمين ومن ثم دارت الدائرة على المسلمين .

وتصايح القوم أن رسول الله قد قتل ، فى الوقت الذى كان رسول الله محاطاً بالمسلمين . وقريش تقذفه وتقذف المسلمين بالحجارة التى أصابت رباعيته ، وشجت وجهه ودخلت حلقتا المغفر فى وجنتيه وسقطت ثنياته . واستمات المسلمون فى الدفاع عن رسول الله . وترس سعد وأبو دجانة دون رسول الله . وبقى رسول الله فى هدوء واطمئنان يستقبل هذا الظرف العصيب ، دون أن تفارقه ثقته بنصر الله طرفة عين ولا أقل من ذلك .

واستشهد الكثير من المسلمين بعد البلاء الصادق . والجهاد الطويل ، ومثلت قريش بالمسلمين . وكان أفظعها تمثيلا حمزة ، وعاد المسلمون إلى المدينة ، ولكنهم لم يلبثوا أن خرجوا فى الغداة

إلى (حمراء الأسد) وقد أذن رسول الله ألا يخرج إليها إلا من حضر (أُحُداً) .

وأقام وأصحابه بها ثلاثة أيام يوقدون النار ويتربصون بقريش أن تعود . ولـكن قريشاً كرهت العود ، وقفلت راجعة إلى مكة ثم قفل بَعدها الرسول وأصحابه إلى المدينة وقد استرد المسلمون هيبتهم بهذه المناورة العسكرية البارعة .

ولم ينقطع بين غزوتى (أحد — الأحزاب) سيل السرايا . وقد كان أبلغ أحداث هذه الفترة ، حادث الاغتيال فى الرجيع وبئر معونة ، وقصتهما متشابهة ، فقدجاء أقوام يقولون أن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يعلمونا شرائعه ، ويقرؤنا القرآن ، فأرسل مع أهل نجد سبعين رجلا ضربت أعناقهم ، ولم ينج منهم إلا عمرو بن أمية الذى حمل الخبر إلى رسول الله . وأرسل مع الآخرين عشرة ، قتل منهم ثمانية . منهم خبيبا وزيداً .

وفيما يحدث هذا كله ، يتربص اليهود بالمسلمين الدوائر ، ويظهرون البشر والرضى ، لما يصيبهم من أحداث ، ويأتمرون بهم ، بل لقد ائتمروا فعلا برسول الله عند ما زار محلة بنى النضير قريبا من « قباء »

وقد رجع إلى المدينة . وذكر لأصحابه أمر يهود ، وبعث توا محمد بن سلمه اليهم يقول لهم : إن رسول الله أرسلني اليكم أن اخرجوا من بلادي ، لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي ، ولقد أجلتكم عشراً ، فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه . فلما أخذت يهود تتأهب للرحيل حرضهم ابن أبي سلول على البقاء .

ولم يمهلهم حتى يدبروا أمرهم . بل سار إليهم بعد العشرة ، فقاتلهم عشرين ليلة . فخربوا بيوتهم بأيديهم ، وأمر رسول الله أن تقطع نخيل يهود وتحرق . وجبن « ابن أبي » فلم يوف لهم ماوعد من العون . فسألوا رسول الله . أن يؤمنهم حتى يخرجوا فأمنهم . فخرجوا إلى أذرعات بالشام ، وتركوا وراءهم كل ما يملكون غنما للمسلمين ، وبذلك أجلى رسول الله اليهود عن المدينة فاطمأنت وضربت الذلة على المنافقين الذين كانوا يجدون منهم عونا وسنداً

واستدار العام وذكر محمد كلمة أبي سفيان في أحد « يوم بيوم بدر وموعدنا العام المقبل » فخرج رسول الله وخرج المسلمون إلى

بدر ، وخرجت قريش ثم عادت بعد مسيرة يومين بعد أن أذّن فيهم أبا سفيان بأنه راجع فليرجعوا

واستقر أمر الله وأمر دعوته بالمدينة ، ولم يكن من اليسير على قريش أن تترك المسلمين دون أن تدبر لهم أمراً أو تكيد لهم كيدا ، ورسول الله بالمدينة حذر يقظ ، يبث عيونه فى أطراف شبه الجزيرة تنقل إليه من أمرها كل صغير وكبير

(٥)

وجاء الوقت الذى نظرت فيه قريش وقبائل شبه الجزيرة إلى رسول الله ودعوته نظرة الخصومة ، فقد كانت الدعوة الإسلامية تلاقى فى ذلك الوقت خصومة اليهود . وخصومة قريش . وخصومة قبائل غطفان وهذيل . فما أن سمت بين قريش وبين هذه القبائل تؤلبها على محمد . حتى استممت وتماهدت واستجابت . وخرجت غطفان وبنى مرة وفزارة وأشجع وسليم وعلى رأسها أبى سفيان فى أربعة آلاف .

بم لقى محمداً هذه الجموع الضخمة الحاشدة المتمنعة فى أسلحتها وعتادها ؟ لا شىء ! إلا أنه حفر الخندق مع أصحابه ، وعمل فيه بيديه فكان يضرب بيده ، ويحمل التراب ويحدث أصحابه فى يسر وإيناس ويهون عليهم الأمر .

فلما صادفت أصحابه الصخرة الضخمة العاتية ، واستعصت عليهم تناول رسول الله معوله وضربها فى قوة ثلاث مرات تفتتت

على أثرها . وبشر أصحابه بفتح فارس واليمن والشام . وحدثهم عن قصور القياصرة والأكاسرة وصنعاء . وأبلغهم وعد ربهم بامتلاك هذه الأقطار .

وهكذا ، ظهر وميض الأمل والبشرى فى أشد ساعات العسرة والقنوط . فما أن انتهى المسلمون من حفر الخندق حتى برزت جموع الأحزاب تغير على المدينة « وإذا جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا »

أما المؤمنون فقد قالوا حين رأوا الأحزاب : « هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانًا وتسليماً »

وارتدت هذه الجموع عن الخندق محنقة مغيظة خاسئة حائرة يائسة ، واستمر الحصار شهراً قاسى فيه المسلمون صنوفاً من العنت والحرمان ، وترددت قريش فى البقاء ، وخذلتها عوامل الشتاء وحطمت عزمتها مناورة « نعيم بن مسعود » الذى جاء رسول الله مسلماً مستخفياً فما زاد رسول الله عن أن قال له : خذل عنا ما استطعت ! فإن الحرب خدعة .

ثم جاءت الريح العاتية والعاصفة الصرصر، فاقتلعت الخيام، وكفأت القدور، وملأت نفوس المشركين واليهود رعباً وفزعاً، فتطيروا ودب فى نفوسهم اليأس، وقفلوا راجعين.

وأصبح المسلمون وليس هناك إلا بقايا من مخلفات الجيوش المهزومة، ولم ينتظر رسول الله حتى يؤذن العصر، ونادى مناديه من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة.

فحاصروا حصن اليهود. وامتد الحصار أكثر من عشرين ليلة. حتى جاع من فيها. وعرضت قريظة الخروج فأبى رسول الله ذلك عليها وقبلوا أخيراً تحكيم «سعد بن معاذ» وقبل رسول الله. وأخذت المواثيق على انفاذ حكمه فحكم بأن تقتل المقاتلة وتقسم الأموال وتسبى الذرية والنساء. فحفرت الخنادق وجيء باليهود فضربت أعناقهم فيها. وقسمت أموالهم وسباياهم. وزاد بذلك أمر المسلمين استقراراً.

* * *

ومضى محمد فى طريقه. ينظم الجماعة ويسوى الصف. ويتعرف وجوه القوة والضعف فيها بعد ذلك الامتحان الرائع

الذى امتحن به المسلمون فى غزوة الأحزاب ، وبعد أن تجمعت شبه الجزيرة جميعاً على هذه الدعوة فى إهابها الغضة . وفى أدوار نضـوجها الأولى تحاول أن تمزقها وتذروها لولا تأييد الله ونصره .

وخرج رسول الله إلى غزوة بنى المصطلق التى أعقبتها فتنة عبد الله بن أبى بن سلول · حين قال لجلسائه :

— لقد تـكاثرنا المهاجرون فى ديارنا . والله ما أمرنا وإياهم إلا كما قال الأول « سمن كلبك يأكلك » . . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأزل .

وكاد أمر الفتنة أن يتسع لولا حكمة رسول الله الذى رد رأى عمر فى قتل (ابن أبّى) وقال له : كيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه .

وإذن للرحيل فى ساعة لم يكن يرتحل المسلمون فيها · ثم ماكان من إسراع أبى ابن سلول ينفى لرسول الله ما أذيع عنه ، ثم نزول القرآن يؤيد ما أنـكر ابن أبى من قولته الظالمة .

وتتابعت الحلقات . فأذاع المنافقون فى أعقاب المودة من بنى المصطلق ، « حادث الأفك » الذى استقبله رسول الله كما استقبل كل الأزمات والحادثات والمؤامرات من قبل فى رضا وطمأنينة إلى أمر الله ، وفى حكمة القائد الخبير ، حتى نزل الوحى ببراءة عائشة وحكم الله فى رمى المحصنات .

(٦)

وهكذا تضطرد حياة محمد من حلقة إلى حلقة . كلها النصر للدعوة والتجمع حولها . وكلها الأدالة من الخصوم والمنافقين حتى مضت على الهجرة ست سنوات استقر فيها أمر رسول الله بالمدينة ، بعد أن قضى على شرذمة اليهود الخبثاء الماكرين الذين كانوا أكبر المتآمرين على هذا الدين منذ بزغ فجره إلى اليوم .

وتتابعت الحوادث ، فأمر رسول الله المسلمين بالتأهب للحج مع ما فى نفوس المهاجرين من حنين إلى مكة ، الوطن الأول ، وما فى نفوس الأنصار من شوق إلى بيت الله الحرام .

وأذن رسول الله بالحج . وأرسل إلى القبائل يدعوها للاشتراك معه ، وساق المسلمون الهدى أمامهم علامة السلم والحج ، لا الحرب والقتال ، وسار ألف وأربعمائة من أتباع رسول الله إلى مكة ملبين بالعمرة ، وعلمت قريش خبر رسول الله فخرجت تلبس جلود النمور . وتنزل بذى طوى ، وسمع رسول الله تأهبهم لمنعه من

دخول مكة . فقال : « ياويح قريش ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب . فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين . . فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة (صفحة العنق) .

وحرص «محمد» على السلم عندما برزت جموعهم تواجه جموعه ، ونادى مناديه : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم ؟ فلما تقدم الدليل سار المسلمون وراءه حتى وصلوا ثنية المرار . فلما بلغ المسلمون الحديبية بركت ناقة رسول الله (القصواء) وقال الرسول « إنما حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعونى قريش إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

ونزل ونزل الناس ودارت الرسل بين المعسكرين على أن الرسول وأصحابه إنما جاءوا زائرين لبيت الله العتيق . وأرسلت قريش « الحليس » إلى معسكر المسلمين . فأمر رسـول الله أن يطلق الهدى أمامه ، ورآه الحليس . وقد امتلأ به سهل الوادى تأكلت أوباره فأثر فى نفسه مرآه . حتى رده إلى قريش دون أن

يلقى رسول الله ليحدثهم عن أمر محمد وصدق نيته فى زيارة البيت .

ثم بعثوا « عروة بن مسعود » الذى حدث رسول الله فى جفاف وغلظة ، وعرف منه أنه إنما أقبل مع أصحابه معظمين للبيت ومعتمرين وعاد إلى قريش مشدوهاً مأخوذاً : وهو يقول: إنى جئت كسرى فى ملكه . وقيصر والنجاشى ، ووالله مارأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه . ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه . وإنهم لن يسلموه لشىء أبداً : فروا رايكم .

وخرج بعض سفهاء قريش ليلة فليلة يرجمون معسكر النبى بالحجارة بغية أن يصيبوه ، فلما اقتيدوا إليه عفا عنهم ، وأطلق سراحهم . وأرسل رسول الله عثمان بن عفان فطال احتجابه ، وأشيعت الشائعات عن مقتله ، وغدر قريش به « فنادى رسول الله أصحابه وقال : لا نبرح حتى نناجز القوم : ووقف تحت الشجرة وبايعهم وضرب بيده على أيديهم . وقال : هذه بيعة عثمان .

وأيد الحق تبارك وتعالى هذه البيعة بالآيات الكريمات « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى

قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » .

ثم مالبث عثمان أن عاد إلى رسول الله واتفق المسلمون مع قريش على التفاهم وندبت لذلك «سهيل ن عمرو» الذى رغب إلى رسول الله فى العودة عامه هذا ، على أن يرد مكة عام قابل فتخلى قريش له حرمها ثلاثة أيام . ليس عليهم إلا السيوف فى القراب !

ودارت « المحادثات » بين محمد وبين سهيل طويلا ، وضاق المسلمون لتشدد سهيل مع تسامح النبى . وكادوا يفتنون فى دينهم لقبول رسول الله عروض قريش وأنزعج عمر بن الخطاب لذلك أشد الانزعاج ، حتى حادث أبا بكر وسئل رسول الله فى الأمر وهو يقول : « ألسنا بالمسلمين . فعلام إذن تعطى الدية عن ديننا» ورسول الله يقول له «أنا عبد الله ورسوله . لن أخالف أمره ولن يضيعنى.» .

وكتب العهد وعارض سهيل فى عبارة « بسم الله الرحمن الرالرحيم » كما اعترض على عبارة « محمد رسول الله » وأقره

الرسول عليهما جميعا . وقبل رسول الله أن يرد إلى قريش من يأتيه منها . ولا ترد قريش من يأتيها من قبله .

وما كاد العهد يوقع بينهما ، حتى قدم أبو جندل بن سهيل بن عمرو مقيداً بالسلاسل يصرخ ويطالب المسلمين بأن يضموه إليهم خوف أن يفتنه المشركين عن دينه . ورسول الله يجيبه فى بساطة وهدوء .

« أباجندل اصبر واحتسب . فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا . إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا . عهد الله ، وإنا لا نغدر » .

وحلق رسول الله ونحر . وكذلك فعل المسلمون .

(٧)

وعاد المسلمون وهم ضائقون بأمر معاهدة الحديبية لولا ثقتهم في رسول الله وما يهون عليهم أمرهم إلا الثقة في القائد والتسليم له في الميسر والمكره سواء .

وإنهم لفي الطريق وعمر يحاذي رسول الله بركابه يحاوره في أمر الحديبية ثم يخشى من أمره فيرجع . وإذا بالوحي ينزل على النبي بسورة الفتح « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » فيسر المسلمون وتهدأ نفوسهم وتستريح أفئدتهم . ثم يرون أن أمر الحديبية كان غاية في بعد النظر والدهاء والحكمة ، إنها هدنه السنوات العشر تهيء فيها الدولة الإسلامية الناشئة أمرها وتثبت قواعدها ؛ وأنها الاطمئنان من الجنوب ثم هو الاعتراف بالمسلمين وبدولتهم ثم هو التقدير للاسلام

ولا يلبث أمر قريش وهي تعترف بمحمد أن يسرى في شبه الجزيرة مسرى النار في الهشيم فيوقظ القلوب الغافية ويرد النفوس المضطربة ، ثم يفد « أبو بصير » من بعد إلى المدينة

مسلماً ، فيرده الرسول وفاءً لعهده ويقول له « إنا قد أعطينا القوم ماقد علمت . ولا يصح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، فانطق إلى قومك . فلما مضى . قال رسول الله ويح امه مسعر حرب لو كان معه رجال : وقد انطلق أبو بصير فساحل البحر ونزل العيص وتسامع به الذين احتجزتهم المعاهدة فى مكة فاعتصبوا على ساحل البحر وقطعوا الطريق على القوافل والمسافرين . وقتلوا كل مسافر ونهبوا كل قافلة حتى بعثت قريش إلى رسول الله تسأله بالارحام أن يقبل هؤلاء ويسقط هذا الشرط وقد كان .

وفى ذلك العام وبين الحديبيه وعمرة القضاء ، انفذ رسول الله أمرين بالغين فى الأهمية ، فقد هاجم يهود خيبر وحاصرهم أعنف الحصار ، وطال أمره ايمانهم بالقوة ففتحوها واحداً واحداً واستقتل اليهود فى الدفاع فلم يغنهم ذلك شيئا . وانهار سلطانهم وأذعنوا لأمر المسلمين وهاجر أغلبهم . وبقى بعضهم ، وبذلك قضى على سلطان اليهود فى شبه جزيرة العرب قضاءاً أخيراً

ثم أخذ رسول الله يرسل الرسل إلى الملوك يعلن اليهم دعوة

ربه فأرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والحارثين الغسانى بالحيره والحميرى باليمن والى نجاشى الحبشه يدعوهم إلى الاسلام ، وفى ذلك من الثقه ومن القوة النفسية ما فيه . وقد أجاب بعضهم وامتنع آخرون

واستدار العام ، ومضى المسلمون إلى مكة يشارفون البيت الحرام ويطوفون به وينحرون الهدى ويقضون الفريضة الكبرى ثم يعودون إلى المدينة وقد أسلم خالد بن الوليد الذى قال : لقد استبان لكل ذى لب أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين فحق على كل ذى لب أن يتبعه »

ومضى محمد فى طريقه. وقد استقام أمر لدعوة واستقرأمر الدولة واتجه بصر النبى إلى الشام فأرسل إليها ثلاثة الآف من المسلمين جعل على رأسهم أمير وخليفتين ، وجعل على الجيش زيد فان أصيب فجعفر ، فان أصيب فعبد الله بن رواحه ، وقد قتل ثلاثتهم فى المعركة وتسلم الراية خالد بن الوليد الذى داور بالمسلمين فى تدبير حربى منظم حتى رجع بأصحابه دون أن يعرضهم لخطر هذا العدد الضخم من العدو . ومالبثت قريش بعد ذلك أن نقضت

صلح «الحديبية» إذ حاولت بنى بكر حليفة قريش — فى الصلح أن تنال من خزاعة حليفة المسلمين .

وأذن رسول الله فى القبائل بالتأهب دون أن تعرف الوجه ، وأوفدت قريش أبا سفيان إلى المدينة ليزيد فى المدة بعد أن يثبت العهد ، فلم يجد إلى رسول الله منفذاً أو نصيراً ، حتى أن ابنته زوج النبى خذلته وطوت فراش رسول الله عنه وقالت له مقالتها .

وتجهز المسلمون دون أن يعرفوا إلى أين . وضبط (على) كتاب (حاطب بن أبى بلعتة) إلى أهل مكة . وعفا الرسول عنه بعد أن استأذنه عمر فى قتله وقال له : مايدريك يا عمر . لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم

وزحف الجيش وهو لايعرف وجهته ، بل يمضى فى طريقه بأمر قائده . وقد اشتركت فيه قبائل « سليم ومزينة وغطفان » فامتلأ بهم الوادى ، وعلى رأس هذه الكتائب المؤمنة الصادقة رسول الله يبغى فتح مكة ويسأل ربه أن يأخذ عليهم العيون حتى يأتيهم بغتة ، وأن يحقق له أمره دون أن يريق قطرة دم واحدة .

وبلغ مر الظهران فنزل بها وأوقد النار وضربت خيام ألف فارس من المسلمين فغمرت الوادى فأمسى مهيبا رهيبا .

وخرج زعيم قريش «أباسفيان» يلتمس خزاعه وقدظن أنهاقد حشتها الحرب فلما بلغ المعسكر عرف إنه رسول الله والمسلمين ، وحاول عمر أن يقتله لولا أن أمّنه الرسول وأذن للعباس أن يذهب به إلى رحله حتّى الصباح . واستعصت شهادة الإسلام على أبا سفيان فما نطق بها إلا بعد أن وقف يستعرض هذه الكتائب والنجائب وقد أرهبه أمرها وهزه من الأعماق حتى سأل العباس فى لهف ودهشة « لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما » .

وقد استجاب رسول الله لناحية الفخر والزعامة فى نفسه فاعلن أن من دخل المسجد فهو آمن ، وعاد أبو سفيان إلى مكة يحدث أهلها بما لاقبل لهم به

ودخل رسول الله مكة دون أن تلقى جيوشه مقاومة تذكر بعد أن انحنى لربه شاكراً أن فتح عليه مكة دون أن يراق فيها دم . وآوى إلى خيمته التى ضربت له قبالة جبل هند . وذكر رسول الله وذكر المسلمون كيف أخرجوا مهاجرين بعد أن اضطهدهم

أهل مكة وثبت لهم أن التربة المكية لم تعد تصلح لما صلحت له تربة يثرب من بعد

وخرج رسول الله فامتطى ناقته القصواء وسار بها حتى بلغ الكعبة فطاف بالبيت سبعاً . ثم وقف على باب الكعبة ووقفت قريش تسمع ماذا سيكون من أمرها بين يدى رسول الله ، وهى التى آذته وأخرجته ولم تدع مكيدة فى سبيل تحطيم دعوته إلا اقترفتها ثلاثة عشر عام كاملة ، ثم كيف مكرت بعد ذلك بالمسلمين فى أحد والخندق ، ولكن رسول الله كان عفوا صفوحا .

قال يامعشر قريش : ما ترون إنى فاعل بكم ؟

قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وهكذا صدر العفو العام من القائد العام بعد أن أمكن الله لها من العدو ، وحطم رسول الله الأصنام ، وأزال الصور من حول الكعبة وعرف فى الأنصار مخافة فقال لهم : المحيا محياكم والممات مماتكم .

وأذن بلال فوق الكعبة ، وصلى الناس خلف الرسول ،

وقال قولته الخالدة : « ياأيها الناس أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة لا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك منها دما ، أو يعضد منها شجراً ، ولم تحلل لأحد من قبلى ولا تحلل لأحد يكون بعدى ، ولم تحل لى إلا هذه الساعة ثم رجعت لحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

(٨)

وأقام رسول الله بمكة . وقد أرسل السرايا إلى القبائل تحطم الأصنام وتهدم الأوثان . أرسل خالداً وأرسل علياً . وعلم رسول الله حين مقامه بمكة أن «حنين» تستعد لغزو مكة فبادرهم في اثنى عشر ألفاً من المسلمين ، تحركوا زاحفين إلى حنين ، وقد ملأهم الإعجاب بالكثرة والعدد ، فوصلوا مع المساء فنزلوا على أبوابها حتى أصبح الصباح ، وما لبثوا أن انحدروا حتى واجهتهم عاصفة من النبال فى عماية الصبح ، فاختلط أمرهم وانفرجت صفوفهم . وانقلبوا فارين ورسول الله فى مؤخرة الجيش . وقد رأى هذه الجموع وقد أخذت تفر وتنحدر من حوله يميناً وشمالا . وهو واقف على فرسه ، ثابت كالطود لا يريم ، يردد فى رباطه جأش قولته البليغة .

«أنا النبى لا كذب . أنا ابن عبد المطلب» . وأدلى إليه العباس وأخذ يلقى إليه أن ينادى : يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يامعشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، أن محمد حى

فهلموا ، ورددت جنبات صوته أنحاء الوادى وأجاب المسلمون عن جانب :

« لبيك . لبيك » .

وسمع المسلمون كلمة البيعة فعادوا فى قوة واستبسال . ونزل بعضهم عن أفراسهم . وشدوا على العدو فى عنف ، وقوة . واستماتوا ، وقد اشتد عودهم فلم يستطع خصومهم أن يثبتوا على المقاومة طويلا .

ونظر رسول الله فرأى رجاله يقبضون على ناصية الموقف ، ونادى : الآن حمى الوطيس . إن الله لا يخلف رسوله وعده .

« ولقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » .

واستشهد عدد ضخم من المسلمين فى هذه الغزاة ، وغنم المسلمون وأسروا أكثر مما غنموا فى أى معركة من قبل .

ثم زحف رسول الله وأصحابه إلى الطائف يحاصرون ثقيفاً ويضيقون عليها الخناق : ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق ،

فلما امتنعت عن التسليم هدد رسول الله بقطع كروم الطائف وحرقها فلما أجمع المسلمون أمرهم راجعت ثقيف وبعثت إلى رسول الله تسأله بالرحم أن يمهلهم فرجع رسول الله بجيشه . وقد أزمع أن يعود إلى الطائف ما انتهت الأشهر الحرم .

ووزع رسول الله الغنائم بعد أن احتجز خمس الله ورسوله ، وما أن انتهى منها حتى جاءه وفد «هوازن» مسلمين يسألون رسول الله أموالهم ونساءهم . وقالوا : يا رسول الله إن فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللواتى يكفلنك فاستمع إليهم رسول الله وسألهم : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا . بل ترد إلينا نساءنا وأبنائنا .

فقال : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم : وإذا ما أنا صليت الظهر فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا .

فلما انفتل من صلاته قالوا . فرد عليهم بمقالته برد ماله وما لبنى عبد المطلب فقالت المهاجرن على الأثر : وما كان لنا فهو لرسول الله وقالت الأنصار مثل ذلك .

ووقف رسول الله يقسم الفىء والمسلمون يتصايحون حوله وقد أخذوا ردائه فصاح فيهم : ردوا إلى ردائى أيها الناس . فوالله لو أن لى بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ثم ما الفيتمونى بخيلا ولا جيانًا ولا كذابًا .

وأخذ رسول الله بعد ذلك يوزع الفىء ، ويعطى المؤلفة قلوبهم فى سخاء وكرم ، حتى بلغ عطاء أبا سفيان ومعاوية مائتى من الإبل . وأعطى عباس بن مرداس فاستقل العطاء فقال . اذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه .

وتحدثت الأنصار عن عطاء رسول الله وقالوا : لقى والله قومه . وبلغت مقالتهم رسول الله فنادى سعد ابن عبادة . وقال ماقالة بلغتنى عنكم ياسعد : أجمع لى قومك فى الحظيرة . فلما اجتمعوا سعى رسول الله إليهم وخاطبهم :

يامعشر الأنصار ماقالة بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها فى أنفسكم ألم آتكم ضلالا فهداكم الله . وعالة فأغناكم الله . وأعداء فألف بين قلوبكم . أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذبًا فصدقناك . ومخذولا فنصرناك . وطريدًا فآويناك . وعائلا فآسيناك

أوجدتم يا معشر الأنصار من لماعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم . ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرؤا من الأنصار . ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار . وأبناء الأنصار . وأبناء أبناء الأنصار .

فما بلغ رسول الله من قوله هذا حتى فاضت العيون واخضلت اللحى بالدمع الهتون . وقال القوم . رضينا برسول الله قسما وحظاً .

(٩)

تهيء رسول الله بعد ذلك لغزو الروم إذ نما إليه تفكيرها فى غزو حدود العرب . فأخذ رسول الله يستعد لها وهو العليم ببعد الشقة وشدة القيظ وجدب الصحراء وقلة الزاد . وقد دعى رسول الله المؤمنين فلبوا ندائه وجاءوا بأنفسهم وبما لديهم ولم يصرفهم عن الغزاة شدة قيظ ولا صحراء .

وتخلف عن رسول الله فريق من المنافقين ، ممن بعدت عليهم الشقة ، وممن قالوا لا تنفروا فى الحر . وممن قالوا ائذن لى ولا تفتنى .

وانتهز بعض المنافقين الفرصة ليخذلوا المسلمين عن الغزاة ويحرضوهم على التخلف . وعلم رسول الله أمر ندوة سويلم اليهودى وأمر من يجتمعون على التخلف . فأرسل إليهم طلحة بن عبيدالله فحرق عليهم دارهم .

وأنفق عثمان فى تجهيز جيش العسرة ألف دينار . وأنفق

غيره من المسلمين قدر ما استطاعوا . وفى الوقت الذى يجىء فيه المعذرون ليستأذنوا رسول الله فى التخلف ، يجىء الفقراء يريدون أن يحملهم النبى ، فيرد بعضكم وهو أسيف حزين . ويقول لهم : « لا أجد ما أحملكم عليه » فيتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ، أن لا يجدوا ما ينفقون .

وزحف جيش العسرة فى ثلاثين ألف من المسلمين . وسار الجيش فى رعاية الله قاصداً « تبوك » فما أن بلغها حتى كان الروم قد انسحبوا عندما علموا بمسيره ، فأمّن الحدود وعاهد أهلها . وعاد وقد تكشف له فى حال عودته أمر المنافقين فى آيات من القرآن ، وصف فيها الحق لرسوله أصنافهم وأعمالهم فكان عليهم شديداً بعد عودته ، حتى أنه أحرق مسجد الضرار بعد أن استمهل أصحابه الذين دعوه ليصلى به قبل ظعنه إلى تبوك .

وظل رسول الله بعد ذلك يستقبل الوفود تأتى مبايعه إياه من أطراف الجزيرة حتى سمى عامها ذاك بعام الوفود . وحج أبا بكر بالناس ، ومضى فى عقبه « على » موفداً من رسول الله يتلو على المسلمين فى الموسم صدراً من سورة (براءة) فلا يحج بعد العام

مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته .

ومن ثم لم يعد للمشركين بمكة مقام « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله » وتتعاقب الوفود ولها من بعد حديث.

ثم أذن رسول الله فى القبائل بالحج الأكبر . وسار المسلمون فى الخامس والعشرين من ذى القعدة من السنة العاشرة من الهجرة وقد تجمع له مائة ألف مسلم من شبه الجزيرة متطلعين إلى بيت الله الحرام ، ملبين محرمين . فلما أن اجتمعوا فى عرفات خطبهم رسول الله خطبته الجامعة ، وأنزل الله قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى . ورضيت لكم الإسلام دينا » فلما سمعها أبا بكر أنشج يبكى والرسول يناديه أن على رسلك يا أبا بكر . وقد وعى الحصيف الذكى أن رسالة النبى قد تمت وأن يوم لقاء ربه قد دنى .

ورجع رسول الله إلى المدينة بعد أن أتم الله عليه نعمة الحج الأكبر ، وبعد أن شهدت هذه الأفواج الضخمة معه هذا الموسم ،

وأخذ يعدّ العدة لغزو الروم ، وجعل أسامة بن زيد على رأس الجيش ، وخرج أسامة إلى الجرف يتجهزوأصحابه . وإذا برسول الله يمرض فيطول مرضه ويضطرب الأمر بالمسلمين ، ثم ينتقل إلى بيت عائشة ، وتشتد به الحمى ، ويخرج إلى المسجد معصبا ويقول للناس . إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختار ما عند الله . إنى لا أعلم أحداً كان أفضـــل فى الصحبة عندى وأكرم يداً من أبى بكر . وإنى لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا . ولـكن صحبة وإخاء وإيمـان حتى يجمع الله بيننا « انفذوا بعث أسامة » .

يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد . وأنهم كانوا عيبتى التى آويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم . »

ثم ثقل به المرض وقال : مروا أبا بكر فليصلى بالناس .

ولمـا سمع عمر يكبر بصوته الجهير ، قال : فأين أبو بكر . يأبى الله ذلك والمسلمون .

وقالت فاطمة لما اشتد به المرض : واكرب أبتاه . فقال : لا كرب على أبيك بعد اليوم .

ثم جاء وعد الله . ووعده الحق . فكان يرفع رأسه ويقول : اللهم أعنى على سكرات الموت

وشخص ببصره وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة .

وقالت عائشة : خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق .

ولحق رسول الله بالرفيق الأعلى وجاء أبا بكر فنظر إلى وجه رسول الله وهو مسجى فى برده وقبله : وقال :
بأبى أنت وأمى يارسول الله . ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً .

صورة وصفية

كان رسول الله متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة . لا يتكلم عن غير حاجة . طويل السكوت وكان سكوته على أربع : الحلم والحذر والتقدير والتفكير .

يخطو تكفؤا ويمشى هونا . إذا التفت التفت جميعاً . خافض الطرف . أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره على وجه أحد .

إذا أشار أشار بكفه كلها . وإذا تعجب قلبها . وإذا تحدث اتصل بها وضرب بإبهامه اليمنى وراحته اليسرى . وإذا غضب اعترض وأشاح ، وإذا فرح غضّ طرفه . جل ضحكه التبسم . ويفتر عن مثل حب الغمام .

يسرع فى مشيته . يرفع يديه حين يدعو حتى يرى بياض إبطه . يتلفت بكل جسمه ، يغضب كأنما يفقأ فى وجهه حب الرمان ، ينام وقلبه مستيقظ .

الانسان الكامل

جمع الله لهذه الشخصية من كريم التورث . ومن بليغ الموهبة . ومن فيض الوحى والهدى ما جعلها الشخصية الأولى فى تاريخ الإنسانية .

« محمد بن عبد الله » هو أنموذج الإنسان الكامل . ورسالته مثال رفيع فى الخير والجمال والحق للدنيا جميعا . ومنذ بزغ فجر هذه الرسالة وأذن صلى الله عليه وسلم بها . وأمره وأمرها متصل بكل أحداث الدنيا وتقلباتها فى الشرق والغرب .

كانت البشرية قبل أن يبعث صلى الله عليه وسلم تمضى فى طريق قد طال والتوى وأغلس . فما أن أرسله الحق بالحق اعتدل هذا الطريق واستوى وأضاء . وارتقت البشرية به ، ويدعونه مرتبة أخرى إلى الإنسانية . ومن ذلك اليوم إلى اليوم ، وإلى الغد البعيد ستظل الإنسانية كلما التوى بها الطريق أو دجى أو أصابتها الحيرة تلتمس فى تاريخه وهديه ورسالته النور والخير والحق .

وتلتمس الأمم والشعوب تجارب أمة تكونت فى ربع قرن وسيطرت على الدنيا فى أقل من قرن .

يلتمس الزعماء تجارب القائد ، الذى ساس القبائل فصرف عنها وحشية الجاهلية . وأمدها بالإيمان والعدل ، يلتمس طلاب الرجولة والعزة وتكامل الشخصية الإنسانية ، كل صفات الحب والوفاء والصدق والقوة فى شمائله وتصرفاته .

هذه الحياة القصيرة فى عدد سنيها ، والتى لم تتجاوز منذ البعث أربع وعشرين عاما من أعوام الناس ، وقد غيرت وجه العالم تغييراً لا يزال له جدته ، تزيده القرون المتوالية قوة وامتداداً وتزداد به الدنيا اقتناعا وإيمانا .

غيرت حياة محمد ودعوته مقاييس الحياة ، وعدلت اتجاه البشرية . وأمدت البشرية بفيضها الإنسانى الضخم الذى مازال يدفعها إلى اليوم ، وإلى الأجيال الطويلة المدى من بعد نحو الحق والخير .

ولا شك أن حياة محمد بن عبد الله قبل أن يأذن الله له بالرسالة ، كانت حياة « إنسانية » تمتاز عن حيوات من حوله بالنقاء

والعزلة ، ولا يحفظ التاريخ له فيها نشاطا أو حركة أو أثراً ، ولكنها كانت على كل حال حياة غريبة أشد الغرابة فى جنوحها عن الاضطراب فى هذه البيئة الوثنية الحمقاء . كانت مزيجا من الأمانة والاعتكاف ، وكانت صورة من الترقب والانتظار ، وكانت النفس الصافية الطاهرة العفة التى اصطنعها الله لنفسه ، وصنعها على عينه ، وقد تكاملت وأعدت . ونشأت كالزهرة العاطرة من الأصل الطاهر العف . بين هذه الأنفاس المحرقة من الضلال والإثم كما ينبت الورد من الأشواك .

هذه هى النفس التى أعدها الحق لتطوى صفحة الظلم والضلال وتنشر صفحة النور والتوحيد .

وتقوم حياته قبل بعثه على مواقف أربعة : الرحلة والتجارة . والأمانة والذكاء . وحرب الفجار . وحلف الفضول .

أما الرحلة والتجارة فهما مرتبطان يجمعان بين معرفة الناس والبلاد والابتلاء بأخلاق الناس وطبائعهم . والقدرة فى الحكم على الأمور . وسداد التقدير للتصرفات ، والفهم للاوضاع . وتلك عدة أصحاب الرسالات فى فهم طبائع الناس واكتناه سرائرهم ودراسة نفسياتهم .

وقد برزت نتائج هذه « الدعامات » فى حياته بعد الدعوة بأجلى معانيها فقد عرف بالفراسة النافذة والفهم الدقيق لما يدور فى خواطر الناس . وعرف بالقدرة على سبر أغوارهم واكتناه دخائلهم ، أليس هو القائل : الناس كإبل ، المائة لا تجد فيها راحلة .

أليس هو الذى كان يخاطب كل قبيلة بلهجتها ولسانها . أليس هو القائل : خاطبوا الناس على قدرعقولهم . ومايتهضون به من أمور

وقد عرف بالاستنتاج اللماح وسرعة البديهة ومعرفة أقدار الناس ، وما يصلحون له وما يحسنون أدائه .

* * *

أما الأمانة والذكاء فهما عدة المصلح وقائد الرأى يكون بهما محبوباً مهيبا . الأمانة مبعث الحب والذكاء مبعث المهابة .

وقد برز هذا المعنى فى حياته جليا واضحا يوم حكمته القبائل المختلفة على نفسها فى أمر الحجر الأسود ، وقالوا : نحتكم لأول قادم . فلما أشرف . قالوا : هذا هو الأمين . قد رضينا به حكما . فحكم لهم فى أمر الحجر بما أرضاهم ، وصرف خصومهم فى سرعة

خاطر ، وحضور بديهة ، وتصريف للامر . عجزت عنه هذه القبائل مجتمعة . وعجز عنه كل زعيم من زعمائها منفرداً .

واشترك محمد قبل البعثة فى حرب الفجار : وقد عرف عنه أنه كان فى أول هذه الحرب التى امتدت أكثر من ثلاث أعوام يحمل السهام إلى أعمامه بعد أن يجمعها من مساقط العدو ، ثم أتيح له أن يشترك بعد فى إلقائها وقذف أعدائه بها .

واشترك فى « حلف الفضول » الذى تماهدت فيه قريش على نصرة المظلوم حتى يؤدى حقه ، وكان يذكره فيقول : ما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم ولو دعيت به لأجبت » وهذه الركيزة الرابعة تمثل جانب الوفاء والإخلاص ، الذى أخذ صبغته العلمية يوم بركت القصواء فى ثنية المزار بالحديبية فقال : إنما حبسها حابس الفيل عن مكه ، لا تدعونى قريش إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . . » .

* * *

وهكذا يتبين أن فترة ما قبل البعثة فى حياة محمد — وهى الفترة التى امتدت منذ وعى الصبا الذى يبرز ويتكامل —

عادة — فى سن الخامسة عشرة . وينتقل بأدوار الشباب والفتوة إلى الرجولة على حدود الأربعين ، فى هذه الفترة برزت دعائم الكمال فى شخصيته الإنسانية على وجهها الممتاز .

خبرة ودراسة للناس من الرحلة والتجارة . وإعجاب وتقدير من للذكاء والأمانة وجهاد ونضال ودربة على الحرب والقتال ، ثم وفاء ونجدة .

ولو لم يكن فى حياته قبل البعثة غير هذه الدعائم الأربع لكفاها دليل على إرهاصات الشخصية الممتازة التى تتأهب لقيادة الإنسانية وعلائم الرجولة الكاملة التى تتأهل لحمل رسالة إصلاحية عظمى والتى تأتى من بعد بالأعاجيب مما يصل إلى ذروة المثل العليا التى تظل نبراساً يحتذى على طول الزمان .

* * *

تلك « علامات » الرجل قبل الدعوة .

وهذه « مظاهر » محمد الإنسان : صاحب الرسالة والوحى والمصلح الاجتماعى .

برز فى نواحى البطولة . وأخذت الرسالة مجامع قلبه . فأنفق فيها وقته وحياته وعاش لها .

برز فى الرجولة والعبادة والمشاركة الوجدانية والاجتماعية .
وبرز فى السياسة والقيادة الحربية والزعامة الشعبية .

استنبىء على رأس الأربعين : سن الرجولة والكمال ، كى لا تطغى الرسالة على جوانبه الإنسانية . ولا يسلبه الوحى خصائصه الشخصية .

جمع الله له الوحى الربانى والاجتهاد الإنسانى .

اصطنعه الله للدعوة . فعاش لها ولم يأخذ عليها أجراً « قل لا أسالكم عليه أجراً » .

عمل بيده فلم يعش كلاً . وتزوج فنفى عن دعوته الرهبانية ، أوتى صفاء الذهن . واعتدال المزاج إلى قوة الجسم وحسن الهيئة .

جمع الله له بين الثقة بالنفس . والشجاعة . والتواضع . وقوة البيان وظاهره بعد ذلك بالوحى وتأييد السماء .

أعطاه الله خمسا لم تعط لنبى من قبله « نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد من

قبلى ، وأعطيت الشفاعة وكان النبي يرسل لأهله خاصة وأرسلت إلى الناس كافة » .

وجمع الله له بين اليتم والفقر فصرف عنه بهما شر الترف الذى يحطم عزائم الرجال ، وجعله مثلا للفقراء فلا يرون فى الغنى مقياساً لمرضاة الله . وعافاه من تدليل الطفولة وشوائب الثراء . ولطالما قال : اللهم ارزقنى كفافا . وارزق آل محمد كفافا . اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين . وقال : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة .

اصطفاه الله ، وأمر المسلمين بالصلاة عليه ، وأخذ العهد على الأنبياء بالإيمان به ونصرته . وأقسم الحق تبارك وتعالى بحياته : « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » .

* * *

وكانت الهجرة فيصلا بين الواقع المرير لثلاثة عشر عاما من الاضطهاد والنضال والمقاومة ، وبين حاضر جديد تأذن الله فيه للمجاهدين بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير .

إن فى الهجرة وحدها « شمائل » لمحمد تزهو على التاريخ ،

وما طوت صفحاته من أحداث البطولة . وأن فى بقاء الرسول بمكة بعد أن أذن لأصحابه بالهجرة ، ويرقب جموعهم وهى تنحدر إلى الشمال فتمضى فى غفلات الليل ، وتحت أجنحة الظلام تطوى هذه القفار لا تبالى ما تلاقى من آلام السرى ومتاعب الاختفاء ولا تسأل عما تركت وراءها فى مكة من أهل ، وما خلفت من أبناء أو أموال ، وهى فرحة مشرقة يزيدها هذا الفرح قوة على المضى إلى (يثرب) التى آوت ونصرت .

إن فى بقاء الرسول فى مكة حتى تنتهى هذه الأفواج إلى مقرها وحتى لا يبقى فى مكة من المؤمنين المجاهدين إلا ثلاثة . لمثل من أمثلة القيادة الحازمة فى رجولتها وشجاعتها وصبرها قل أن يدانى .

* * *

« قائد دعوة » يواجه الخصوم العتاه بنفسه ، من غير أنصار ، ويظل باقياً فى مكة مقيماً لا يبرح حتى يسبقه كل أنصاره إلى المدينة . وهو لا يمضى حتى يطمئن إلى أنه قد أسلم الكتيبة المؤمنة إلى مكانها المأمون .

إن حادث الهجرة هو المرحلة الثانية للدعوة الإسلامية

انتقلت به من الكلام والاقناع والصبر والاحمال والريث والترقب والمداراة والتقية ؛ إلى المكاشفة والمواجهة وإلى المقاومة والنضال وإلى بذل الدماء رخيصة فى سبيل تركيز الراية ، وتوسيد النظام .

ولا يقل موقف النبي هذا فى أول المرحلة الثانية ، من موقفه فى أول المرحلة الأولى :

ذلك هو حادث الحوار بينه وبين عمه أبو طالب ، حين أزعجه القوم بأمر دعوة الرسول ، وحين هاجت قريش وماجت ، وعندما انكشف بها ما وراء الدعوة من صراع بين باطلهم المتهافت وحقه الخالد ، فجاءوا إليه يطلبون منه أن يضع حداً لأمر محمد ، ويعرضون عليه العروض ، ثم يهددونه أشد تهديد ، وما يلبث أبو طالب أن يسعى إلى رسول الله يحدثه وهو يظن أنه سينال منه ما يريد ، وأنه بالغ أعماق نفسه بما يلقى إليه حتى ليقول له فى ختام كلامه : « إن قومك انذرونى فابق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق » .

وتقف الدنيا كلها فى خشوع ورهبة تنتظر ما يقول النبى

ويقول محمد : «والله يا عم، لو وضعوا الشمس عن يمينى والقمر عن يسارى على أن أدع هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه : ماتركته» .

وينظر أبو طالب إلى رسول الله فتأخذه الرهبة وتنزع هذه الألفاظ القوية الصادقة كل أثر فى نفسه مما قالت له قريش . فما يلبث أن يقول فى حماس :

إذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

صلى الله عليه وسلم .

شمائل محمد

« كأنه وهو فرد في جلالته

في عسكر حين تلقاه وفي حشم »

البوصيري

تـكاملت الشخصية الإنسانية فى شمائل محمد أوفى ماتتكامل فى إنسان . وبرزت فيه « الرجولة » التى تتسم بالزهد والتواضع والشجاعة والوفاء ، وعرف بالربانية المؤمنة . فـكان « عابداً » يقف بين يدى مولاه حتى تتورم قدماه . وكان « اجتماعياً » شارك الناس فى سرائهم وضرائهم وأحبهم وسهر عليهم اخوة وأتباعا ، أزواجاً وأبناء ، فى إيثار ووفاء .

وعرف بالزعامة فـكان مصلحاً جمع إلى ضبط النفس قوة التأثير . وكان فعالا أكثر منه قوالا . لم يستغفل فى مكيدة . ولم ينم عن مهمته لحظة من ليل أو نهار . واتسم بالسياسة فـكان مثلا للـكياسة والدهاء دون تـكبر أو طغيان . فعقد المعاهدات وبعث البعوث .

وكان قائداً عرف بالبطولة الحربية والشجاعة فقاتل بيده ، وكان إذا اشتد اليأس أقرب الناس إلى العدو .

ووصـل إلى ذروة البلاغة فى القول فـكان « محدثاً »

بارعاً فصيح اللسان واضح البيان . يقول أوضح القول فى أوجز عبارة .

وبهذه الشمائل جميعاً كان المثل الكامل للشخصية الإنسانية الفردية ، وكان المثل الأعلى للزعامة والقيادة فى سيرته وشمائله يجد الزعماء والمحاربون والساسة والمفكرون عنده خلاصة الدراسات التجريبية للإنسان الكامل .

١ — الرجل

اتسم بالزهد فى الدنيا . واكتفاءه بالقليل . ولكنه ليس زهد الضعفاء . أو زهد العجز والقصور . وإنما زهد المالك فيما يملك ابتغاء مرضاة الله .

وقد أثر عنه قوله : مالى وللدنيا . إنما أنا والدنيا كراكب استظل بظل شجرة ثم مضى وتركها .

ولقد أثر عنه أنه خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير وكان يرضى بالكفاف فى المأكل والغليظ فى الملبس . وينام على وسادة أدم حشوها ليف . يحسبه بضع لقيمات يقمن أوده . وأحياناً يبيت طاوياً ، وكثيراً ماقضى وأهله الأيام ليس لهم طعام إلا الخبز والماء .

قالت عائشة لعروة : يا ابن أختى إننا كنا ننظر الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين ما أوقدت فى بيت رسول الله نار . فقال يا خالة : ما كان عيشكم . قالت : التمر والماء .

وقد روى أنه ما أكل أكلتين فى يوم واحد ، إلا كانت أحداهما تمراً وما شبع عن خبز الشعير يومين متتالين ، وكان مع ذلك كله يعظم النعمة ، وإن دقت ولا يذم شيئاً .

ويقول : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد .

هذه هى الزعامة الفقيرة والقيادة التى لا تقيم سلطانها وصولجانها على دعامات واهية من المظاهر البراقة ولا تقيم مآدبها وولائمها على الوان الأطعمة المختلفة .

وحياة الرسول لم تكن فى الواقع حياة فردية ، وإنما هى حياة توجيهية تقضى بالأمر على وجه من وجوهه ، لأنها تريد أن تكون وضعاً من أوضاع الكيان الإنسانى فى الجماعة الإسلامية .

ولذلك عرف فى عبارته روح التوجيه والتنفيذ ، ولم يكن هذا « الفقر » أو هذا « القصد » فى أمر المطعم والملبس وفراش النوم إلا رغبة فى إقرار طبيعة خشنة صاعدة ، لا يزعجها نقص أمور المطعم والمشرب والملبس فى ظرف من الظروف .

وكان إلى هذا القصد متميزاً بالجود والسخاء . أضف إلى ذلك روح المحاسبة والتقدير التى تبرز عند استقبال مطعم شهى .

دخل المسجد فوجد أبا بكر وعمر فقال . ما أخرجكما . قالا : الجوع . فقال رسول الله : وأنا أخرجنى الجوع . فذهبوا إلى أبى الهيثم التيهان الأنصارى . فقام فذبح لهم شاة واستعذب لهم ماء . ثم أتى بذلك الطعام والماء فأكلوا منه وشربوا .

فقال رسول الله : لتسئلن عن نعيم هذا اليوم . قال هذا ومع ذلك فإنه لم يمتنع عن رد سبايا هوازن وكانوا ستة آلاف .

وكان طعام النبى ليلة عرسه من أم سلمة لا يزيد عن شىء من الشعير أخذته أم سلمة فطحنته ثم عقدته فى البرمة ، وأخذت الكمبة فأدمته .

وعن أنس رضى الله عنه أنه أهدى إلى رسول الله طبق من رطب فجثا على ركبتيه . فأخذ يناولنى قبضة قبضة يرسل بها إلى نسائه ، وأخذ قبضة منها فأكلها ، وأخذ يلقى النوى بشماله فمرت به داجنة فناولها فأكلت .

ويقول : أخفت فى الله وما يخاف أحد . وأوذيت فى الله

وما يؤذى أحد . ولقد أتت على ثلاثون ما بين يوم وليلة . مالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه أبط بلال .

ومن حديث الطعام عند رسول الله عبرة أخرى فهذا هو يبيت على الطوى . ويربط بطنه من الجوع ويصبح الصباح فيسأل أهله : أعندكم شيء . فإن قالوا : لا صام يومه .

ولقد جاءه الضيف فأرسل يسأل فى بيوت زوجاته التسع ، فلم يجد عند إحداها شيئاً ، فوكل أمره إلى أصحابه . ولقد ضاقت زوجات النبي بهذا الوضع ، وطلبن النفقة فنزل القرآن يفاصلهن المقام مع رسول الله « إن كنتن تردن الحيـاة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا » والمتاع هنا هو متاع الطلاق .

تلك أولى دعائم الرجولة عند النبي ، لم يكن للطعام والشراب عنده ذلك الخطر الذى يعطيه الناس إياه فيتحكم فى أقدارهم .

* * *

واتسم باليسر والبساطة فى لقاء الأمور ، وفى توجيهها .

إذا خير بين أمرين اختار أيسرهما مالم يكن إثماً . يمزح ويتفكه ولا يقول إلا حقاً .

ولقد برزت بساطته فى كل شىء ، فقد كان الرسول يذهب إلى السوق ويحمل بضاعته . وكان إذا تصدق وضع الصدقة فى يد السائل ، وكان يركب ويردف خلفه .

وجاءه الرجل وهو يمشى ومعه دابته . فقال للنبى : اركب . وتأخر عن حماره . فقال الرسول له : أنت أحق بصدر دابتك منى إلا أن تجعله لى . فلما قال له الرجل إنى جعلته لك ركب .

وليست هذه البساطة واليسر إلا مظهراً صادقاً من مظاهر التواضع فقد عرف الرسول بتلطفه مع الأطفال والصغار . وعرف بالصبر على الجفوة للغريب فى منطقه ومسألته . ولم يكن تبعاً لذلك يواجه أحداً بما يكره . ويجيب دعوة الداعى ، ويعود المريض ، ويقبل العذر ويتجاوز عن المسىء . وله فى كل حالة من هذه الحالات أحداث تروى ، وليس له فيها كلام يقال. فقد كانت حياته تجريبية وأهدافه توجيهية وأسلوبه تنفيذياً محضاً .

يعطى من منعه ويصل من قطعه ويبذل لمن حرمه ، ويغضى طرفه عن الأذى . وكان أجود من الريح المرسلة

قال له أحد الوافدين : أنت سيدنا . قال السيد الله : قولوا قولكم ولا تستجرينكم الشيطان .

إذا أقبل جلس حيث ينتهى به المجلس ، وكان يمد طرف ردائه لحليمة لتجلس عليه . ويلقى وسادته لضيفه ، ويجلس ، هو على الأرض . وكانت له حصير يحتجزه فى الليل ، فيصلى فيه ، ويبسطه بالنهار فيجلس عليه .

ذلك هو محمد الذى لم تعرف عنه مهانة ولاجفاء ، بل الدماثة واليسر، جبل على الخلق الكريم بالهبة الآلهية ، والرياضة النفسية، يحلب شاته ويخصف نعله ، ويحب التيمن فى كل شىء، فى طهوره وفى ترجله وفى تنقله .

* * *

دخل عليه الرجل يرجف فقال له خفض عليك . إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة .

كان بيته حجرات واطئة ضيقة من اللبن ، بينها حواجز من جريد النخل .

وعرف بالتفكهه فلم يكن جهماً يحمل بضاعته وكان الناس يظنون حمل البضاعة غورة .

وعرف يتلطفه مع الأطفال وكان يدمع لموتهم ويقول : إنما هى رحمة يضعها الله فى قلب من يشاء من عباده .

يكره التميز والترفع عن أصحابه وأتباعه ، فلم يكن يعرفه الغريب الوافد إلى المسجد حتى يسأل عنه

عرف قدره كل من عرفه . عندما دخل المسجد والقبائل مختلفة قالوا هذا الأمين . وعندما وقف على الصفا قال : لو اخبرتم أن خيلا بسفح هذا الوادي تجرى أكنتم مصدق . قالوا : ما جربنا عليك كذبا .

وقالت له السيدة « خديجة » عندما فجأه الحق فى غار حراء فقفل ترجف بوادره : « والله لا يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضعيف . وتعين على نوائب الحق » .

ولم يغضب رسول الله إلا للحق . وما غضب لنفسه مرة ولا انتصر لها وعند ما غضب على السيدة عائشة بعد أن استأمنها على

العبد فهرب منها وقال لها : قطع الله يدك . عاد فرفع يده إلى السماء ودعا ربه : اللهم انى بشر أغضب وآسف كما يغضب البشر فايما مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه بدعوة فاجعلها له رحمة .

لم يعرف عنه قط الغضب فى أمر من أمور نفسه . ولم يرغاضبا إلا فى قليل من الأمر . غضب يوم مقتل حمزة ، وغضب يوم عاد من حنين ، وأخذ الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفوا رداءه فوقف وقال : أعطونى ردائى فلو كان لى عدد هذه الفضاة نعما ، لقسمته بينكم ثم لاتجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا .

وهو فى غضبه يملك تمبيره فلا ينفلت منه الكلام : غضب يوم حبس عثمان . ووقف تحت شجرة الرضوان وقال : بايعونى على أن نناجز القوم !

وكان غضبه عليه السلام فيما يتصل بالدعوة لا فيما يتصل بشخصه الكريم ، لم يغضب على الرجل الذى قال له : يامحمد أقض حق فأنتم معاشر بنى عبد المطلب مطل ، ولم يغضب حين جذبه الإعرابى من برده النجرانى الغليظ الحاشية حتي أثر في عنقه الشريف .

ولم يغضب من الرجل الذى قال له بعد عطية اعطاه أياها : هل أحسنت إليك قال : لا . ولا أجلت .

وكان يتوضأ ليزول غضبه ، ويجلس إذا كان قائماً ، ويقوم إذا كان قاعداً . ويوصى بذلك .

* * *

وعرف إلى ذلك كله بالرحمة التى لا تقتصر على بنى الإنسان فحسب ، بل التى تشمل كل حى .

مر وهو فى طريقه إلى فتح مكة على كلبة تهر على أولادها ، وهن من حولها يسترضعنها ، فأمر جميل بن سراقة أن يقوم حذاءها حتى يمر الجيش فلا يعرض لها أحد .

وبكى يوم مات إبراهيم وقال : يا إبراهيم انا لن نغنى عنك من الله شيئاً . وانا يا ابراهيم لمحزونون تبكى العين ويحزن القلب ولا نقول مايسخط الرب .

وكان . فى كل أمره وحاله . مشرق الروح موصول القلب بربه ، يقول ابن شهاب : أن النبي كان يأتى له بالباكورة من

الفاكهة أو غيرها فيقبلها ويضعها على عينيه ويقول : « اللهم كما أريتنا أوله فأرنا آخره » .

وكان لا يزعجه الأمر الجلل لثقته بربه ، رمى الكفار التراب على رأسه الشريف فدخل إلى بيته . وأخذت فاطمة تغسله عنه وهى تبكى وهو يقول : لا تبكى يابنية . إن الله مانع أباك .

وكان يعرف من أمره ، خطأه وصوابه ، فلا يرى مندفعاً فى اتجاه أو رأى دون أن يراجع نفسه المرة بعد المرة .

قال فى حجة الوداع ، لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ماسقت الهدى ، وقال فى عمرة القضاء : فعلت اليوم أمراً ليتنى لم أفعله ، دخلت البيت فعسى الرجل من أمتى لا يقدر أن يدخله ، فيكون فى نفسه حزازة ، وإنما أمرنا بالطواف ولم نؤمر بالدخول .

وكان إلى ذلك كله ، نظيفاً جميل الملبس ، لايرى إلا فى أكمل مظهر ، فلما سئل فى ذلك قال : إن الله يحب من أحدكم إذا خرج لاخوانه أن يتجمل لهم .

ويقول أحد أصحاب الرسول ، اننا كنا نعرف خروج النبى بروح الطيب .

ويقول انس بن مالك صحبت رسول الله عشر سنين وشممت العطر كله فلم أشم نكهة أطيب من نكهة رسول الله ، ما رأيت شيئاً أحسن من النبى ، وما رأيت أحداً أسرع فى مشيته من النبى ، كأن الأرض تطوى له ، وانا لنجهد وهو غير مكترث .

ولم يبلغ إنسان ولا زعيم نهاية الوفاء كما بلغه رسول الله حين نادى فى الناس قبل أن يقبض : أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليقتد منى ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه ، ومن أخذت منه مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يخشى الشحناء فهى ليست من شأنى .

ولقد جاهد رسول الله فى سبيل رزقه قبل الدعوة بالتجارة ، ثم عاش فى مال زوجته خديجة بعد البعثة ينفقه فى الدعوة ، ثم يسر الله له الأمر من بعد فأثر عنه قوله « وجعل رزقى تحت ظل رمحى » .

٢ ـــ العابد

« قل إن صلاتى ونسكى . ومحياى
ومماتى لله رب العالمين » .

لم تجتمع فى مصلح ولا قائد هذه الصفات التى تجمعت فى محمد فقد كان صلى الله عليه وسلم نموذجا صادقا كاملا للرسالة التى أرسل بها ، فكان عابداً يقوم الليل حتى تتورم قدماه . ويصوم من الشهر حتى يكاد لا يفطر .

ويقول إن لبدنك عليك حقا . ولربك عليك حقا . ولأهلك عليك حقا . . وهى حقوق منفصلة لا يغفل فى توزيعها ولا يجور حق منها على الآخر .

وقد وصل « محمد » فى جانب (العبادة) إلى أرقى درجات العبّاد المؤمنين حتى لتنام عيناه ولا ينام قلبه . وإذا نام يوقظوه حتى يكون هو الذى يستيقظ ، وقد ملكت عليه الدعوة حواسه وقلبه فصبر على الجاهل والمتعنت .

ومن خشيته لربه وشدة خوفه من عظمته نسب كل شيء إليه ووصل نفسه به فى كل أمره . وكل حركاته . يذكره عندما يستيقظ وعند ما ينام . وعندما يمشى . وعندما يخرج من منزله . وعندما يدخل المسجد وعندما يعود . وعندما يسافر وعندما يرجع ، وعندما يلبس .

قام الليل حتى تفطرت قدماه . وقد سئل لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً . فإذا صلى بالناس خفف صلاته حتى تكون أخف صلاة . فإذا صلى بنفسه أطال صلاته .

ويقول عبد الله بن مسعود : « صليت مع النبى ليلة فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء . قيل وما هممت ؟ قال هممت أن أجلس وأدعه .

ويقول عبد الله حذيفة بن اليمان : « صليت مع النبى ذات ليلة فافتتح بالبقرة . فقلت : يركع بعد المائة . ثم مضى . فقلت : يصلى بها فى ركعة . فمضى فقلت : يركع بها . ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها ، يقرأ مرسلا فإذا مر بآية فيها تسبيح سبح وإذا مر بسؤال سأل . وإذا مر بتعوذ تعوذ . ثم ركع

فجعل يقول : سبحان ربى العظيم . فكان ركوعه نحواً من قيامه . ثم قال : سمع الله لمن حمده . ربنا لك الحمد . ثم قام قياما طويلا قريباً مما ركع . ثم سجد فقال : سبحان ربى الأعلى . فكان سجوده قريبا من قيامه « رواه مسلم » .

ويصلى رسول الله لربه ويقوم الليل إلا قليلا . وإذا حزبه أمر أكثر من الصلاة . وإذا جاءه من يطلب شيئاً قصر من صلاته .

* * *

وهو صلى الله عليه وسلم يعرف قدر ربه . فيقول : شيبتنى هود واخواتها ويربط كل من له صلة به ، بموقفه منه عند ربه فيقول : يا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى . لا أغنى عنك من الله شيئا » ويثق بالله فى مواطن الشدة والبأس . فلا تغره المظاهر . يقول له أبوبكر وهو فى الغار : لو نظروا تحت أقدامهم يارسول الله لرأونا فيقول : يا أبا بكر . ما ظنك باثنين الله ثالثهما . . لا تحزن إن الله معنا .

ويشكر ربه فى مواطن النصر ، فيدخل مكة ساجداً على

بعيره ، وهو يردد : لا إله إلا الله . نصر عبده وعز جنده وخذل الأحزاب وحده .

ويعود من السفر أو الغزوة فيتجه إلى المسجد فيصلى لله ركعتين قبل أن يدخل منزله .

ويذكر ربه فى كل حال . فإذا عاد من السفر كبّر على كل شرف . وقال : تائبون آيبون . إن شاء الله حامدون . لربنا عابدون . أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد .

وإذا خرج إذا السفر قال : اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل . وإلى بنى مسجده ارتجز :

اللهم إن العيش عيش الآخره   فاغفر للأنصار والمهاجرة

وإذا حفر الخندق ارتجز :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا   ولا تصدّقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا   وثبت الأقدام إن لاقينا

وإذا رأى المطر قال : اللهم صيباً نافعاً . وإذا خاف ضرر قال اللهم حوالينا ولا علينا . اللهم على الآكام والآجام والظراب والأودية ومنابت الشجر .

وإذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك . وإذا رأى الهلال قال : الله أكبر . اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والسلام . ربى وربك الله . هلال خير ورشد.

ويقول للمسافر : استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك . وإذا سرى بالليل مسافراً قال : اللهم اطو له الأرض وهون عليه السفر .

قال جابر بن عبد الله : إن الرسول كان يعلمنا الاستخارة فى الأمور وإذا رأى ما يحب قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وإذا رأى وجهه فى المرآة قال : اللهم أنت أحسنت خلقى فأحسن خلقى وحرم وجهى على النار . وإذا قال له إنسان « إنى أحبك » قال « أحبك الذى أحببتنى له » وإذا أصبح قال : أصبحنا وأصبح الملك لله . وإذا وقع له مالا يختاره قال « قدر الله وما شاء فعل » وإذا استصعب عليه شىء قال : اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلا » .

وإذا لبس الثوب قال : اللهم إنى أسألك من خيره ومن خير ما هو له . وأعوذ بك من شره ومن شر ما هو له .

وإذا خرج من منزله قال : بسم الله توكلت على الله ولاحول ولا قوة إلا بالله . وإذا قدم إليه الطعام قال : اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار » .

وإذا دخل فراشه قال : « باسم الله ربى وضعت جنبى وبك أرفعه » .

* * *

قال أبو حميد الساعدى « أنا كنت أحفظكم لصلاة رسول الله ، رأيته إذا كبر جعل يديه حذاء منكبيه ، وإذا رفع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره فإذا رفع رأسه استوى حتى يعود كل فقار إلى مكانه فإذا سجد وضع يديه غيرمفترش ولا قابضهما واستقبل بأطراف أصابع رجليه القبلة . فإذا جلس فى الركعتين جلس على رجله اليسرى ، ونصب اليمنى . وإذا جلس فى الركعة الأخيرة قدم رجله اليسرى ، ونصب الأخرى وقعد على مقعدته » .

تلك صلاته . أما ضجاعه فهو أدم محشو ليفا . قيل ان عائشة كانت تفرش للنبي عباءه فجاء ليلة وقد ربعتها فنام عليها فلما أصبح قال يا عائشة : ما افراشي الليلة ليس كما كان .

قالت يا رسول الله قد ربعتها لك . قال فأعيديه كما كان .
وفى رواية أنه منعنى من قيام الليل .

* * *

ومع هذا القدر الرفيع من العبادة والاتصال بالله فقد كان يغضب ممن يجنحون إلى العزلة والانقطاع والرهبانية ، وقد عرف غضبه ومعارضته لأحد أصحابه عندما مالت نفسه للعزلة فى مغاره بجانبها ماء وخضرة . وقال للذين مالوا إلى الرهبانية والانصراف إلى العبادة : أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى . وهو بهذا يجمع بين التعبد لله حتى تكون قرة عينه فى الصلاة . وبين أداء حق الإنسان فى الحياة .

وهكذا بلغ النبى ذروة الإيمان بالله والتوكل عليه ولم تكن عبادته عبادة الرهبان أو العاكفين فى المغاور والكهوف وإنما عبادة الرجل القوى المتجهز للقاء العدو ، المراقب لحركاته ، الباث عيونه فى كل مكان لاستكناه أمره .

هى عبادة القوى لا عبادة الضعيف . يعرف ربه ويلجأ إليه ومعه القوة والعدة . ويدعوه حتى يسقط ردائه وكتائبه مصطفة للقتال فلا تنسيه العدة والسلاح حسن الالتجاء إلى ربه .

٣ ــ الاجتماعى

برز «محمد» فى رجولته فكان مثلا كاملا ، يقتدى ويحتذى ، وكانت رجولته عملية توجيهية . وبلغ أرقى درجات التعبد ولكنها كانت عبادة القوى الواثق بربه المستمد بالعتاد . وليست عبادة التواكل والعزلة .

والجانب الاجتماعى فيه ، فياض ضخم . تظهر فيه معالم المشاركة الوجدانية . والإيثار والتواضع ، حية نابضة بالقوة ، فهو كزوج ووالد وقائد ترى فيه تلك البشاشة وذلك الأنس واللين.

عندما ذبحوا الشاة قال أحدهم علىّ سلخها . وقال الآخر علىّ طبخها وقال النبي : وعلى جمع الحطب .

عمل مع الأجير والفاعل فى بناء مسجد المدينة . والخندق . وتلك أعلى درجات المشاركة وهو الغنى برفيع مقامه بين أصحابه عن أن يدعه أصحابه يعمل معهم . ولكنه كان يكره أن يتفضل عليهم.

ولقد امتنع عن قبول رأى على بن أبى طالب . ومرثد بن

أبى مرثد الغنوى فى أن ينزلا له عن حقهما فى المشى فى طريق بدر.

وعرف «بالتواضع» فكان يركب الحمار ويردف خلفه ويجلس حيث ينتهى به المجلس . ويأكل مع خادمه ، ويركب الحمار بالأسواق ويعتقل الشاة فيحلبها . ويشرب آخر الناس : ويقول ساقى القوم آخرهم شربا .

وكان يزور خادمه أنس فى بيته ويتلطف معه فى القول ·

وعرف بالإيثار فكان يوزع على أصحابه كل ما غلا من الغنيمة ويقنع بالقليل والخشن . وبلغ فى ذلك غاية ما عرف من الكرم فإذا سأل أعطى كل ما يملك · وإذا سأل وهو معدم وعد ولم يزد . وأحياناً يأتيه الرجل وما عنده شىء فيقول له : اتبع على فإذا جاءنا شىء قضيناه . ويؤثر من يدخل عليه بوسادته ويجلس على الأرض · ويلم بعباءته .

وبرز فى آداب المعاشرة واللياقة . ولطالما قال : إنى لست أرضى لكم ما أسخطه لنفسى . ولم يفقه متفوق فى حسن مقابلته للناس والاجتماع بهم . فهو يلتفت بوجهه وجسمه ويصغى تمام الإصغاء ويتحدث إليه من شاء فلا يقطع حديثه وإن طال .

ولا ينزع يده من يد محدثه حتى يكون صاحبه هو الذى ينزعها ، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذى يصرف وجهه عنه . وكان يتحمل لإخوانه إذا خرج إليهم وإذا غاب أحد من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه .

ولم ير مقدما ركبته بين يدى جليس له . ويقول (أنس) خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لى أف قط . وما قال لشىء صنعته لم صنعته . ولا لشىء تركته لم تركته . وتلك سجية الداعية والمصلح والنبى . يتألف الناس بهذا الطبع الكريم السمح وبهذا الحلم الوفير ، وقد جمع رسول الله إليه القلوب بهذه المشاركة لاتباعه والسهر على مصالحهم . وإشعارهم بقربهم إلى نفسه ومكانهم عنده .

ذلك جانب من عبقرية القيادة ونبوغها وتقديرها للاتباع وسياستهم باللين فى مواضعه والشدة فى أوقاتها حتى يستقيم الأمر ولا يفلت الزمام . وهو القائل « ما صاحب مسلم صاحبا ساعة من نهار إلا سئل عن صحبته يوم القيامة .

ولقد حرص على أن يكون اتصال الناس ببعضهم فى أمر المعاملات رفيقاً ليناً فيه عدالة وسلامة . ولقد غضب من عمر

عندما نهره الرجل الذى جاءه يطالب الرسول بدين عليه .

وقال له : أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج : أن تأمره بحسن التقاضى وتأمرنى بحسن القضاء .

وتلك مزية الاجتماعى المطبوع والزعيم اللبق . يسبق حلمه غضبه ولا يزيد شدة الجهل من أحد عليه إلا حلماً .

وهو إلى ذلك مثالا للنظافة والتزين والتجمل . وقد أوصى بها وقد أثر عنه قوله : «اغسلوا ثيابكم . وخذوا من شعوركم . واستاكوا وتزينوا . وتنظفوا فإن بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم » وفى هذه الحكمة ما فيها من دقة الملاحظة ، ومن رفعة الإسلام عن أوضاع بعض « المتمخرقين » وحملة الرقع والأدلاق.

* * *

وجمع محمد إلى هذا المعنى دقة الإحساس الاجتماعى فى صلة الرجل بزوجه فقال « إذا دخلت ليلا (من السفر) فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة : وتمشط الشعثة . الكيس الكيس ! »

وتلك براعة الفاهم الحصيف لملاقات الرجل والمرأة . وأثر المفاجئات غير المنتظرة فى موقع المرأة من زوجها .

وهو لذلك كان حريصاً أن يقرع بين نسائه إذا خرج فى سفر فأيها خرج سهمها خرج بها . حتى لا يغضب إحداهن .

وقد تحرى العدل بين زوجاته إلى أبعد حدوده . وقال : اللهم هذا قسمتى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » .

وقد بلغ فى هذه العاطفة الاجتماعية مع زوجاته إلى أن سابق عائشة فسبقته مرة وسبقها مرة أخرى .

ونفذت بصيرته الاجتماعية الفاهمة إلى أدق الأمور التى تقوم بين المرأة والرجل فأثر عنه أنه قال للمرأة التى تختن الجوارى يا أم حبيبة : إذا فعلتى فلا تنهكى فإنه أسرى للوجه ، وأحظى عند الزوج ، ولم يمنع ذلك من أن زوجاته كن يراجعنه حتى يظل يومه غضبانا .

ولم يعب الرسول طعاما قط ، إذا اشتهاه أكله وإذا كرهه تركه ، وأوصى بأن لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه وإذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث ، ويسلم الراكب على الماشى ، والماشى على القاعد ، والقليل على الكثير ،

وأوصى فى أمر الخدم والعبيد وصايا كريمة : هى أنموذج

للمشاركة الاجتماعية فقال « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلس معه فليناوله لقمة أو لقمتين ، وقال هم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم »

وعندما أراد أنس أن يحمل له سراويله من السوق قال : إن صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله .

وذلك المثل الذى ضربه محمد لابنته فاطمة حين جاءت تطلب خادماً مما اشتكت من الرحى وهو فيما يروى على « فجاء النبى فأتانا وقد دخلنا مضاجعنا فذهبنا لنقوم فقال على مكانيكما . حتى وجدت برد قدميه فى صدرى . فقال لا أدلكما على خير مما سألتمانى . إذا أخذتم مضاجعكما فسبحا الله ثلاثا وثلاثين واحمداه ثلاثا وثلاثين وكبراه أربعا وثلاثين فإن ذلك خير مما سألتما » . وفى رواية : « كيف أعطيكما وأترك أهل الصفة على ماهم عليه من الجوع » .

وهكذا يفهم محمد أمر المجتمع ويغوص فى أعماقه ويحل مشاكله .

٤ ـ القائد

برزت القياد الحربية فى محمد بعد أن فرض القتال ونزل أمر الله به « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير »

فرض القتال بعد الاستعداد والتأهب وبعد الهجرة وقد عرف عن الرسول من البراعة الحربية مالا يزال مثلا عاليا فى العمل الحربى الذى يحتذى ويبهر ويملأ النفس إعجابا وتقديرا لهذه المقدرة النافذة فى تصريف أمور الحرب وهى أخطر الأمور وأجلها

ولم يكن الرسول محبا للقتال أو راغبا فيه ولطالما حرص على أن يحصل على أعظم النتائج بأقل التضحيات . ولم يكن يلجأ إلى الحرب إلا عندما تنفذ من بين يديه وسائل الدفاع جميعها . ولطالما قال للمسلمين لاتتمنوا لقاء العدو . واسألوا الله العافية » .

وبلغ ذروة الشجاعة فكان إذا اشتد الوطيس وحمى البأس واحمرت الحدق اتقى الناس برسول الله فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه .

وفر الناس من حوله يوم حنين وهو ثابت لا يريم كأنه الطود . يهتف « أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب »

وعرض عليه الانتصار بالمشركين . وهو فى قلة وحاجة إلى رجل واحد فأبى وقال : لا أنتصر بمشرك . وتلك عبرة القائد الواثق بصدق دعوته ونصر ربه ، لا يستعجل الأمور ولا يزيد بالناس وجاهة . وإنما يعرف أمره ويحصره فى القلة من الصادقين .

وعرف بالشورى لأصحابه . لكنه عرف بالحزم

عندما لبس للمسلمين فى أحد . وكان المسلمون قد رجعوا عن رأيهم فى الخروج إلى الاعتصام بالمدينة . فقال لهم فى حزم : ما ينبغى لنبى لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل

حدد لكل أمر قدره وميعاده فى اتزان وحكمة . طلب إليه أهل بيعة العقبة الكبرى أن يميلوا بأسيافهم غداة البيعة على أهل مكة . فقال لهم : لم نؤمر بقتال بعد .

عجم عيدان اتباعه ودرس خصائصهم . وميزهم على قدر عزائمهم ، وأرسل على رؤوس السرايا رجال فيهم مناعة خاصة :

قال لعبد الله بن جحش عندما أرسله على رأس السرية : انى استعملتك على هؤلاء النفر فأمضى ، حتى إذا سرت ليلتين ، فأنشر كتابى ولا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك وامض لأمرى فيمن اتبعك حتى تأتى بطن نخلة ترصد بها عير قريش

ثم قال لأصحاب عبد الله : انى استعملته عليكم لأنه أصبركم على الجوع والعطش

ولهذه الوصية معان أوامر مختومة تفضى فى أماكن معينة. ثم امتحان للرجال لا اكراه فيه. ثم تقدير لأمير فيه صفة خاصة من الصبر على الجوع والعطش . ثم عمل منظم .

وعرف عنه الكتمان والتورية والحيطة فى الحرب . كان إذا أراد جهة ورى بأخرى . وعندما تجهز لفتح مكة كتم الأمر عن أقرب اثنين إليه : عائشة وأبو بكر . بث عيونه وأرصاده

فى كل مكان فكان يعلم الأمور قبل أن تقرر . فيرسل قواته إلى من يدبرون له من الأمر قبل أن يتموه .

بلغ من حرصه من غدر قريش أن جهز مائة فارس فى عمرة القضاء جعل على رأسهم محمد ابن سلمة . وبعثهم طليعة له على الا يتخطوا حرم مكة .

عرف بالنظام والترتيب الحربى الدقيق . درب السريا وأرسلها فلما اشتد ساعدها تقدم بها إلى معركة ضخمة . وأرسل للجيش قائد وخليفة له . لو اصيب قائده . وثالث يخلف الثانى . وقال « أمير الناس زيد بن حارثة . فان قتل فجعفر بن أبى طالب ؛ فان قتل فعبد الله بن رواحة : وان قتل فليرتضى المسلمون منهم رجلا يجعلوه عليهم .

ويستعرض الجيش ويعرض المقاتلة ويسوى الصف ويرد صغار المحاربين ، يخرج إلى الغزل فيستخلف على المدينة ويستخلف على الصلاة هذا لأمور الدنيا ، وذاك لأمور الدين .

وإذا غزا قوماً خرج فى رجاله فلا يظهر وجها ، ويغذ السير ولا يغير عليهم حتى يصبح ، فإن سمع آذانا أمسك وإن لم يسمع أغار .

بلغت به البراعة الحربية والحماسة العسكرية مما لم تبلغ فى قائد من قبل تفرد لقيادة الجيوش دون أن يكون له رسالة أو زعامة أودعوة .

سأل عن المشركين يوم بدر ، فلم يعرف من سائله ما يريد ، فقال له : كم تذبحون ، قال يوماً تسعا ، ويوماً عشرا ، فاحرز أن القوم بين التسعمائة والألف ، وعندما هزم المسلمون فى أحد ، وفرت قريش ، قال : ياسعد اتبعهم فإن ركبوا الإبل فهو الظعن وإن ركبوا الخيل فهى الغارة .

كان قوام قيادته : الثقة بنصر الله ، والثقةبالنفس ، والتعرض للموت ، والبذل والفداء ، وكان من نتائج ذلك أنه انتصر دائما بالقليل من جنوده على الكثير من خصومه .

وكان شعاره : لا تتمنوا ، لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .
وكان يقاتل فلا يلتفت وراءه ، يقول : لولا أن أشق على أمتى ماقعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله ، ولوددت أن أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل .

لجأ إلى ربه فى بدر حتى سقط ردائه عن كتفيه ، ولما فتح مكة ورآها لا تقاوم ، استوقف كتائبه ووقف على راحلته وانحنى لله شاكراً .

ولما كان بالكديد فى فتح مكة بين الظهر والعصر ، أخذ إناء من ماء فى يده حتى رآه المسلمون ثم أفطر فى تلك الساعة .

وقال إنكم مصبحوا عدوكم ، والفطر أقوى لكم .

وعنه أن قوماً صاموا ، فقال : أولئك العصاة !

وقد أوتى القدرة الكاملة على توجيه الأمور وتصريفها بما لم يؤت أحد ، وبما سجل التاريخ من صور لا تزال عدة المجاهد وسبيل النصر .

٥ ــ المحدث

وروى عن « محمد » جانب الكتابة لحكمة عليا سجلها القرآن فى قوله : « ما كنت تتلوا قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك : إذاً لارتاب المبطلون » وقد بلغ الرسول فى أمر الخطابة والحديث مبلغاً أزرى بعظماء العرب وبلغائهم . لقد كانت بلاغة الرسول وقوة بيانه تختلف اختلافا بينا عن بلاغة من سبقوه . ذلك لأنها لم تكن بلاغة الخطباء أو الشعراء أو المتشدقين بالكلام فى حلق الكعبة أو أسواق عكاظ أو المربد أو غيرها . وإنما كان كلامه كلام الداعية : المصلح صاحب الرسالة والهدف . الذى لا يلقى القول على عواهنه . ولا يطلقه تفيهقا أو تطاولا . أو استعلاءاً على الناس . أو إبرازاً للقدرة البلاغية . وإنما كلام الحريص المدقق . الذى يعرف ماذا يقول . والذى يضع كلامه فى موضعه . فهو يوجه كلامه إلى أنصاره وخصومه على السواء . وله مع كل من هؤلاء أسلوب لا يتعدى الحق أو يخرج عنه . ولكنه على كل حال كلام القائد الدقيق اليقظ .

ولقد عرف عنه حسن توجيه القول بحيث لايجرح به إنساناً فهو يعممه ولا يخص به من يقصده . ويتبسط فى القول فيقرب به من القلوب . ويلين لأصحابه وأتباعه فى مواضع اللين . ويشتد على خصومه فى مواقف الشدة وهو فى هـذا وذاك لايعدو كلمة الحق .

وقد كان للحديث فى دعوته مكانا . فقد نشر كلمة الله بالإقناع وبلغ ذلك حداً بعيداً فى السجال بين الرسول وبين اليهود فى مكة . وقضى ثلاثة عشر عاما وسلاحه القول والـكلام . . وأهل مكة . بل وجزيرة العرب كلها ، أهل لغة وبلاغة ولسان .

ولذلك كان الـكلام سلاحه . والـكلام المتميز بالسهولة والبساطة والألفاظ على قدور المعانى ، وهو فى هذا كله لايخرج عن « السهل الممتنع » .

كان أسلوبه البلاغة فى البساطة ، التى تقرب المعنى إلى الأذهان دون أن تبتذل به . ومع ذلك فقد حرص الرسول على التذكير بسحر البيان وخطره فقال : « إن الله تعالى يبغض البليغ من الرجال ، الذى يتخلل بلسانه تخلل البقرة بلسانها »

ويوصى بالكلام وخطره وأثره : فيقول : « من تعلم صرف الكلام ليستبي به قلوب الرجال لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا » ويقول : « وهل يكب الناس فى النار إلا حصائد ألسنتهم »

وحرص على استعمال القوة فى مكانه ، حتى عرف عنه الصمت والقليل من الكلام . ومجافاة اللغو والتكرار .

وإذا خطب احمرت عيناه . ورفع صوته . واشتد غضبه . كأنه منذر جيش . وبعد عن العى والعجز والقصور . وبلغ الذروة فى وضوح الجواب ونصاعة الحجة . وفصاحة اللسان وإيجاز الكلام . وجزالة الألفاظ .

تقول عائشة : «ما كان رسول الله يسرد كسردكم هذا ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل لو عدّه العاد لأحصاه » .

وروى أنه كان يفتح الكلام ويختمه بأشداقه . ويتكلم بجوامع الكلم . فصلا لا فضول فيه ولا تقصير . ولا عجب فى بلاغة الرسول ولا غرابة ، فقد سأله أبو بكر فقال : لقد طفت بالعرب وسمعت فصحائهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك ؟

قال محمد: « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

ولا عجب فيما يقوله أبو بكر فقد ولد الرسول فى قريش ونشأ فى بنى سعد ، ونزل القرآن على لسانه فجمع بين جزالة البادية وبين القدرة على مخاطبة كل قبيلة بلهجتها . قحطانها وعدنانها . وحجازها وتهامها . ونجادها .

وقد أوجز الجاحظ بلاغته وقدرته البيانية فى عبارات رائعة فقال « ألقى الله على كلامه المحبة . وغشاه بالقبول . وجمع له من المهابة والحلاوة . وهو مع استغنائه على عادته . وقلة حاجة السامع إلى معاودته . لم تسقط له كلمة ولا زلت له قدم . ولا بارت له حجة . ولا قام له خصم . ولا أفحمه خطيب . بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير . ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم . ولا يحتج إلا بالصدق . ثم لم يسمع الناس بكلام أعم نفعاً . ولا أصدق لفظاً ولا أعدل وزنا من كلامه صلى الله عليه وسلم .

٦ ـ السياسى

اشتغل بالسياسة ، فأرسل الوفود وعقد المعاهدات والعهود ونظم الدولة . ووضع قواعد النظام الاجتماعى والقضائى وقام عليه . وبرز معنى الزعامة السياسية فى شخصية الرسول بروزاً واضحاً ، فقد أوتى من القوة والوجاهة واليقظة واللباقة والفراسة قدراً ليس بالقليل ولا بالمتوسط : وزاده تميزا عصمة الله له وتوفيقه إياه .

ولقد وصف لذلك . بأن من رآه بديهة هابه . ومن خالطه معرفة أحبه وقد عرف بإحكام التصرف : وأعطى السكينة الباعثة على الهيبة ، وأمده الله بحسن القبول . فوافقته القلوب وانقادت له النفوس وجمع إلى ذلك صدق الفراسة ورجاحة العقل ، وحصة وافرة من الدهاء ، فما استغفل فى مكيدة ولا استعجز فى أمر .

وبلغ أعلى مرتبة بلغها زعيم سياسى ، فشهد له خصومه بالصدق والأمانة ورقى إلى أوفى درجة من الإشعاع النفسى والتأثير الروحى فاجتمع له الناس ، المختلفون مزاجا وخصالا وتربية وثقافة .

واستطاع أن يحول الطبائع بعد أن وصلت إلى درجة الاستقرار ، فأصبحت عجينة مرنة سهلة التحول والتشكل بعد أن طال بها عهد الجاهلية بوراثياته وتفرضاته .

وقد كان يحذر الناس . ويحترس منهم ، من غير أن ينطوى لأحد منهم على سوء . يتغافل عما لا يشتهى . ولا يواجه أحداً بمكروه .

ومنى بجفوة الإعراب ، فلم تقع منه بادرة . وما روى له التاريخ عثرة أو هفوة . وصل من الزعامة الكاملة إلى أبعد أشواطها وأعلى مدارجها .

ويروى أنه أوتى شجاعة موسى وشفقة هارون وصبر أيوب وإقدام داود . وعظمة سليمان وبساطة يحيي ورحمة عيسى .

وعرف بالتمكن فى الصبر والثبات على الشدائد ، والقدرة على تجنب عواقب الأمور . والإعراض عن زخارف الدنيا : فقد زهد فيها واكتفى بالبلاغ منها . « وقال إننا معاشر الأنبياء لانورث وما تركناه صدقة .

تواضع للناس وهم أتباع ، وخفض جناحه للمؤمنين وبلغ به الحلم ونهاية الحكمة .

أحسن صحبة أعدائه ، وعنى بأمرهم فعفا عن أبو سفيان وجعل له فى فتح مكة مكاناً يليق بزعامته ولم يسلبه إياها ، ولم يقبل مشورة عمر فى قتل أبيّ بن سلول ، وكفنه بقميصه وصلى عليه.

وقام أمره على الثقة بنصر الله وتأييده ، وعلى الحذر المتصل ، واليقظة الكاملة ، ومع أنه بلغ مبلغه من الظفر والتمكن ، وظل ينام على الحصير حتى تؤثر فى جنبه وليس فى خزانته إلا قبضة من شعير ، وبقى مكتفياً بالقليل من الطعام والخفيف من الثياب .

* * *

وبلغ ذروة الثقة بدعوته والإصرار على حقها ، فرفض قولة عمه وهو فى أشد حالات الضعف ، لم يقبل المساومة ودعوته فى حاجة إلى نصير واحد ، عرض عليه بنو شيبان عروضاً وكانوا يزيدون الالف ، فقال لهم : لقد قلتم فأحسنتم ورددتم فاجملتم الرد ولكن دين الله لا ينصره الا من حاطه من جميع نواحيه .

وبلغ ذروة الثقة بربه فى نصر دعوته .

وعرف أمور الناس فقال :انزلوا الناس منازلهم . خياركم فى الجاهلية خياركم فى الاسلام .

وفهم سرائر الناس وداراهم وأثر عنه قوله : إن الله أمرنى بمداراة الناس . كما أمرنى بالفرائض : وقوله : لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئاً فانى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر .

ووهب القدرة على فهم الرجال والاتباع فوصفهم فى المواضع التى يصلحون لها . جاءه أبو بصير مسلما فرده مع من جاء يأخذه فلما مضى قتل أبو بصير الرجل فى الطريق ورجع إلى الرسول مخبرا بأمره . وأمر صاحبه . فلما انصرف وصفه بأنه مسعر حرب ، وقد تحققت فراسة الرسول فى أبى بصير فانه لم يلبث أن كمن فى الطريق بين مكه والمدينة واجتمع له الخارجون على مكه !

وأوتى الرسول القدرة على فهم بواطن الأمور . لما وصلت ناقته القصواء الحديبية . بركت . وظن المسلمون أنها جهدت . ولكن الرسول بما أوتى من قوة اكتناه بواطن الأمور قال :

« إنما حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعونى قريش إلى خطة ليسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .. »

وأوتى العفو عند المقدرة عفا عن أهل مكه بعد أن قدر عليهم . وصفح عن اضطهاد ثلاثة عشر عاما . وعفا عن أهل الطائف بعد أن ردوه رداً غير جميل وأعاد سبايا هوازن وكانت ستة آلاف . وتألف قلوب بعض المسلمين بأضخم قدر من الهبة فى أول غزاه بعد فتح مكه .

وأوتى الشجاعة : فزع أهل المدينة فانطلق الناس يبحثون عن الصوت فلقيهم الرسول راجعا ، وقد سبقهم وابتدر الخبر على فرس عرى ، والسيف فى عنقه فاستقبلهم ذاهبين وهو راجع ، فلما رآهم قال مطمئناً : لن تراعوا . لن تراعوا .

وظل فى مكة بعد ان أذن لأصحابه فى الهجرة حتى لم يبق غيره غيره وغير صاحبه أبو بكر .

وقرب القلوب إليه فربط بينه وبين رجاله الأربع الأول بالمصاهرة : تزوج بنتى الصديق والفاروق وزوج عثمان وعلى

* * *

وأوتى الصبر : فاحتمل مساءة قريش طويلا . ودعا إلى الله فلم يسلم له فى ثلاث سنوات إلا أربعين رجلا .

لم يعتمد فى دعوته ولا فى زعامته على الخوارق . أو الظواهر الغيبية .

فلما كسفت الشمس عند موت إبراهيم قال إنها من آيات الله ولا تنكسف لموت أحد ولا لحياته .

وعرف بالكياسة واللباقة . فلما أجدبت أرض مكة تخير أرضاً خصبة غيرها . بحث فى الحبشة والطائف ثم استقر فى المدينة لما عرف من صلاحيتها .

ومن كياسته أنه لم يقبل عند دخوله المدينة دعوة القبائل والبيوت . كانت كل قبيلة تناديه : يا رسول الله هلم إلى القوة والمنعة والثروة فيقول لهم خيرا . فإذا قربوا من دابته . قال : دعوها فإنها مأمورة .

ويقول فى أشد ساعات العسرة والحرج قولة المتفائل الملىء بثقة الله : والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت . لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه .

ويقول له عمر : لقد أثر فى جنبك هذا الحصير . وفارس والروم قد وسع عليهم . وهم لا يعبدون الله .

فلما سمع الرسول مقالته : استوى جالساً وقال : أفى شك أنت

يا ابن الخطاب ، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا .

وعرف بالتواضع : دخل إليه الرجل يرعش فرقاً وخوفاً فطمأنه وقال له لست بملك .

وأوتى إشراق النفس والتفاؤل وسرعة البديهة : مر مع أبى بكر وهما فى الطريق إلى فتح مكة بكلبة تهر فلما دنوا منها استلقت على ظهرها . فإذا أثداؤها تشخب لبنا فذكرها أبو بكر فقال الرسول : ذهب كلبهم وأقبل درهم . هم سائلوكم بأرحامهم وأنتم لاقون بعضهم . فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه .

جمع القلوب بإرضائها بعد أن بهرها بقوته . كذلك فعل مع أبى سفيان : إذ أشار على « العباس » أن يقف به إلى جانب الطريق ، حتى يرى ركب فتح مكة . ثم لما أسلم تحت إرهاص الحملة الجبارة جعل له الرسول ما يريد من الفخر . وما يتناسب مع مكانه فى زعامة قريش . وجعل داره فى مكة كالمسجد : من دخل أيهما كان آمنا .

وعرف لنفسه قدره على أصحابه : وعرف أصحابه قدره عليهم. يقول فى ذلك : ما من مؤمن إلا وأنا أولى به فى الدنيا والآخرة .

اقرءوا إن شئتم : «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم» . فأيما مؤمن مات وترك ديناً فعلى .

وعرف أصحابه قدره فأحبوه . وأسلموا أمرهم إليه مخلصين حتى ليقول أبو سفيان للرجل وهو يعذب : هل تحب أن تكون فى أهلك وأن يكون محمد مكانك . فيقول الرجل : والله لا أحب أن تشوك محمد شوكة وهو فى مكانه .

وتقول قريش لعثمان عندما احتجزته فى الحديبية : طف أنت بالبيت إن أردت . فيقول : والله لا أطوف بالبيت قبل رسول الله .

وقد بلغت ثقة أصحابه به حداً لا يبارى ولا يدانى . يقول أبو سفيان : ما رأيت أحداً يحب أحداً كما يحب أصحاب محمد محمداً .

* * *

وقد احتمل أتباعه العذاب والألم فى سبيل ما جاءهم به فى صبر واطمئنان . ثقة بالله وإيماناً بالقائد .

أما هو فإنه لم يتميز عليهم . وشاركهم فى أمرهم كله . فبنى فى المسجد وحفر فى الخندق ، ومشى على قدمه إلى بدر . وشارك

أصحابه فى جمع الحطب . فإذا قيل لك قد نزلنا لك عن نصيبنا فى الدابة يقول : ما أنتما بأقوى منى . وإذا قيل له نكفيك العمل قال: إننى أكره أن أتميز عليكم . والله يكره من عبده أن يتميز عن أصحابه .

وأوتى دراسة الطبائع . وفهم نفسيات الناس قدراً كبيراً ، وعامل كل صاحب من أصحابه على ضوء هذا الفهم الدقيق .

دخل عليه أبو بكر وهو مضجع وعليه ثوبه فقضى حاجته وخرج . ثم دخل عمر فقضى حاجته وخرج . ثم جاء علىّ فقضى حاجته وخرج . ثم جاء عثمان فجلس له رسول الله فقالت له عائشة : لم تصنع هذا بأحد . فقال إن عثمان رجل حيي وأنى خشيت أن آذن له على تلك الحال ألا يبلغ إلىّ فى حاجته .

ولما قال له أبو ذر : ألا تستعملنى . ضرب بيده على قلبه ثم قال : يا أبا ذر إنك ضعيف . وانها أمانة . وإنها يوم القيامة خزى وندامة . إلا من أخذها بحقها . وأدى الذى عليه فيها .

وهو القائل : أمرنا أن ننزل الناس منازلهم وأن نخاطبهم على قدر عقولهم . وهو القائل : الناس كإبل المائة لا تجد فيها راحلة .

مُلىء قلبه بالرحمة . والآن الله جانبه فاجتمعت إليه القلوب « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » .

يقول بديل بن هاشم مبعوث قريش فى الحديبية إلى الرسول وأصحابه عند عودته إلى قريش : يا قوم ؛ قد وفدت على كسرى وهرقل والنجاشى وأنى والله ما رأيت ملكا أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من محمد فى أصحابه ، والله ما يسددون إليه النظر ، وما يرفعون عنده الصوت ، وما يكفيه إلا أن يشير إلى امرىء فيفعل ، وما توضأ من وضوء إلا ازدحموا عليه أيهم يظفر منه بشىء ، وقد حرزت القوم ، واعلموا أنكم إن أردتم السيف بذلوه لكم . وقد رأيت قوما لا يبالون ما يصنع بهم إذا منعوا صاحبهم .

وأوتى الشخصية العملية . واستطاع تنفيذ أمره دون أن يلتجأ إلى إظهار السلطة .

وأوتى الجرأة . فسفه أحلام قريش . وطعن فى أربابهم

وليس له من الحول والقوة شيئاً . وناهض رأى عمه وليس معه إلا قليل من الأنصار .

وأوتى الذهن المرتب المحدد : فكان يضع لكل أمر حدوداً يقول فى الفارق بين الشجاعة وضبط النفس: « ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد من يملك نفسه وقت الغضب »

ويقول فى الرجل المستقل الرأى والمعدوم الرأى « لا يكون أحدكم إمّعة . يقول أنا مع الناس . ان أحسن الناس أحسنت . وإن أساءوا أسأت . ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم

وبلغ من حسن معاملته للناس حداً كبيراً . دون أن يضحى بشىء من مبادئه ومع التوجيه والاعداد ، يصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته . ويستوى بين الناس فى النظر والاستماع . جمع له الحلم والصبر . إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى كفهم عنه ، وإذا أتى قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثا .

وقد بلغ من تآلفه للاصحاب والاتباع انه ما جلس إليه أحد إلا ظن أنه أقرب الناس إلى نفسه .

يقول : إذا أذاع أمراً . ليبلغ الشاهد الغائب . ويوصى بأن يحمل إليه أمر من لا يستطيع رفع حاجته . فيقول : أبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغى حاجته ، فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه ثبت الله قدمه يوم القيامة .

* * *

وأوتى الكياسة السياسية والبراعة الحربية .

قال لنعيم بن مسعود ، عندما جاءه مسلما فى موقعة الأحزاب قال عبارة قصيرة فيها كل كياسة السياسى : خذل عنا ما استطعت .

ويقف قبيل « معركة بدر » فلا يبرحها حتى يستشير الناس ويقصد الأنصار بالذات . ذلك لأنهم كانوا قد بايعوه فى حدود مدينتهم العذراء وتلك كياسة سياسية منه قبل أن تكون براعة حربية .

ومن كياسته السياسية أنه لما وزع الغنائم فى حنين على المهاجرين دون الأنصار . قال الأنصار : قد عرف النبى أهله وقومه فجمعهم فى الحظيرة وصفى نفوسهم حتى استدمموا وثابوا وعرفوا أنه إنما تألف بها قلوب وو كل الأنصار إلى إيمانهم

ومن « براعته السياسية » أنه أبقى على (عبد الله بن أبىّ سلول) فلم يقبل رأى عمر فى قتله حتى انكشف أمره للناس فكان قومه أول من أخذه بالعنف ، إذا أحدث أمراً . حتى قال الرسول لعمر يوما : كيف ترى يا عمر ، أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لا رعدت له أنف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته

قال عمر : قد والله علمت أن أمر رسول الله أعظم بركة من أمرى

وأوتى سعة الأفق . صلى على «عبدالله بن أبىّ» وأعطاه قميصه ولما اعترضه عمر قال . أخر عنى ياعمر . لو أعلم انى لو استغفرت لهم أكثر من سبعين مرة غفر لهم لاستغفرت لهم

وحرص على مظهر القوة لأصحابه ودعوته عندما جاء مكة فى عمرة القضاء اضطبع بردائه وأخرج ضده اليمنى ، ثم قال رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة وكان ذلك رداً عمليا على قالة قريش بان حمى يثرب قد أنهكتهم .

عامل الناس على قدر مكانهم فى دعوته جاءه المخلفون من

المنافقين فجعلوا يعتذرون إليه ويحلفون له فقبل منهم علانيتهم وإيمانهم ووكل سرائرهم إلى الله ولم يقبل من المؤمنين عذرهم وأمر بمقاطعتهم . وطالبهم بالانفصال عن زوجاتهم حتى ينزل فيهم أمر الله

* * *

وعرف بالحكمة والتدرج فى التربية إن أناسا من الأنصار سألوا رسول الله فاعطاهم . ثم سألوه فأعطاهم ثم سألوه فاعطاهم حتى نفذ ماعنده فقال ما يكون عندى من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنهَ الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر

حرص على إقرار الحقيقة ، ومحو الشبهة : عن صفية ، أنها جاءت الرسول تزوره فى اعتكافه فى المسجد فى العشر الأواخر فتحدثت عنده ساعة ، ثم قامت عائدة فمضى معها النبى حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة ، مر رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله فقال لهما النبى : على رسلكما ، إنما هى صفية بنت حيي ، فقالا . سبحان الله يارسول الله ، وكبر عليهما ،

فقال النبي إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئاً .

* * *

ومن حرصه على العهد والوفاء ، يقول لأبو جندل بن سهيل وقد جاءه بعد صلح الحديبية ، أننا قد أعطينا القوم عهداً فاصبر حتى يجعل الله مخرجاً ، ويقول لأصحابه عند خروجهم للغزو . إذا أعطيتم فلا تعطوا ذمة الله وذمة رسوله ، ولكن اعطوا فضلكم وذمة أصحابكم ، وإذا حاصرت أفضل حصن فارادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فاتكم أن تخفروا ذممكم ، أهون من أن تخفروا ذمة الله ورسوله .

ومن حكمته وسياسته ، أن يرد كل حق إلى صاحبه ، فيتألف بذلك القلوب ويكون الأمر أكثر سداداً ؛ نادى عثمان بن طلحة يوم فتح مكة ، وأعطاه مفتاح الكعبة ، وقال ياعثمان اليوم يوم بر ووفاء .

ومن سياسته المتمدة على الفهم النفسى العميق ، أنه أطلق « الهدى » فى وجه سفير قريش إليه فى الحديبية ، فتأثر الرجل من

منظر الهدى ، وقد تآكلت أوباره . ورجع إلى قريش دون أن يلقى رسول الله .

وله حكمة عالية فى تلقى الأنباء وتصديقها : يصورها فى موقفه من زيد ابن أرقم حين حدثه بحديث « ابن أبى » وقد أخذ الرسول يحاوره فى أدب جم ، يدفع فيه الاتهام ما استطاع عن « ابن أبى » فيقول له : يا غلام لعلك غضبت عليه . لعله أخطأ سمعك . لعله شبه عليك . وزيد يؤكد الخبر والسماع .

ونفاذ بصيرته من حاضر الامور إلى مستقبلها بالفراسة والتقدير : أراد عمر أن يمثل بسهيل بن عمرو ، فيخلع ثنيته ، فعرضه الرسول وقال لا أمثل به ولو كنت نبيا . وعسى إن يقوم مقاما لاتذمه . وقد أسلم سهيل من بعد وقام فى أهل مكه ابان فتنة الردة موقفا كريما .

وعرف بمداراة الناس بالحكمة والتقية : عن عائشة قالت : استأذن رجل على رسول الله فقال بئس أخ العشيرة . ثم أذن له قالت عائشة فلم انشب أن سمعت ضحك النبى معه فلما خرج قلت : يارسول الله قلت ماقلت . ثم لم تنشب أن ضحكت معه . فقال :

ان شر الناس من اتقاه الناس لشره .

وعرف بالعدل بين الناس حسب قدومهم إليه: جاءه انصارى يسأله وجاءه رجل من ثقيف يسأله : فقال: يا أخا ثقيف إن انصاريا قد سبقك بالمسألة. فاجلس كيما نبدأ بحاجة الانصارى قبل حاجتك .

ويقضى بين الناس ويقول : أمرت أن أحكم بالظاهر . والله يتولى السرائر . ولذلك يقول محذراً وموجها : أنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم الحن بحجته من بعض . فمن قضيت له أخيه شيئا فأنما اقطع له قطعة من النار فلا يأخذها .

ويصف سياسة الاستعباد التى تفرق بين مجرم ومجرم . وبين مذنب ومذنب . فيقول : انما أهلك من كان قبلكم أنه كان إذا اجرم العظيم تركوه وإذا أجرم الضعيف أقاموا عليه الحد .

وفى رواية إذا سرق الشريف تركوه . إذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد . وهو الذى يضع أمور القضاء فى نصابها فلا يقبل فيها شفاعة ولا مساومة ولا دية فيقول لأسامة : ويلك أسامة أتشفع فى حد من حدود الله . وايم الله لو أن فاطمة بنت يا محمد سرقت لقطع محمد يدها .

وعندما أرسل معاذ إلى اليمن . قال له يسر ولا تعسر ، بشر ولا تنفر ، وإذا جلس اليك الخصمان فلا تقضى بينهما حتى تسمع من الآخر .

وبعد فهذه فى مجموعها شمائل إنسان : أول سطر فيها البذل والعطاء والتضحية والفداء والأذى فى الله والخوف من الله . وخشية الله وحده لاترهبه صولة ولاترده قوة بالغة ما بلغت من الظلم والإعنات عن دعوته ورسالة ربه .

الدار القومية

للطباعة والنشر

شركة ذات مسئولية محدودة

٣٠ شارع منصور

ص . ب ٨٥٣٢

القاهرة
مطابع دار الكتاب العربى بمصر
محمد حلمى المنياوى

كتب ثقافية

محمد الرسول

"قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي"

قرآن كريم

دراسة تحليلية لشخصية محمد وحياته

الجزء الثاني

بقلم

أنور الجندي

كتب ثقافية



"قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى"
قرآن كريم

دراسة تحليلية لشخصية محمد وحياته

الجزء الثانى

بقلم

أنور الجندى

الزعامة

«قالت عائشة : دخل أبو بكر على رسول الله وهو مضجع . وعليه ثوبه فقضى حاجته وخرج . ثم دخل عمر فقضى حاجته وخرج ثم جاء عليّ فقضى حاجته وخرج .

ثم جاء عثمان فجلس له رسول الله . فقالت له عائشة . لم تصنع هذا بأحد . قال النبي : إن عثمان رجل حيي . وانى خشيت أن أذنت له على تلك الحالة ألا يبلغ الى فى حاجته »

يقول صاحب الطبقات الكبرى يصف « زعامة محمد » :
«يحسن الحسن ويقويه . ويقبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف . لكل حال عنده عتاد . لا يقصر عن الحق ولا يجوزه الدين . يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مؤاساة ومؤازرة . لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر. لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها . واذا انتهى إلى قوم جلس حيث انتهى به المجلس . ويأمر بذلك . ويعطى لكل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن احداً أكرم عليه منه

ومن جالسه أو قاومه فى حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف » ومن هنا أوتى من القدرة ماتقصر عنه قوى الافراد وتعجز عنه طاقاتهم ، ذلك مصدر الامتياز الانسانى والاصطفاء الربانى

ولقد كانت قريش على خصومتها له تهاب فيه هذا الاشعاع الروحى وتخشاه ، فقد كانت تعرف من استكناهها لطبيعة امتيازه عليها بالعفاف والوفاء والصدق والأمانة .

وقد أوتى الصبر الطويل على المكاره المتصلة ، والأذى كما

خلص من عوامل النقص ومركباته فلم تبرز فى تصرفاته أى نازعة من نوازع الكبرياء أو الطغيان .

وعقد له « لواء الزعامة والقيادة » بالفقر والتواضع لا بالمال والثراء فكان يعود المريض ويقبل دعوة العبد ، ويدعو أصحابه بأحب الأسماء إليهم . ويخفض جناحه للمسلمين وهو سهل فى أخذه وعطائه . وكان الاعرابى يدخل عليه فيناديه باسمه مجرداً فيحلم عليه ويعطف وبلغ من بساطته أن يدخل عليه الداخل فلا يعرفه فيسأل أيكم النبى .

وأوتى القدرة على الجمع بين الأوس والخروج ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، ولم يتقدم إلى بدر إلا بعد أن أخذ موثق الأنصار . وعامل المنافقين فى رفق وحزم ، و كتم أمره دائما .

وربط بينه وبين كبار رجاله بالمصاهرة ولم يعتمد على الخوارق والظواهر الطبيعية، ولم يكن يتكلم من غير حاجة؛ وكان طويل السكوت وكان يسمع قول أصحابه ولا يقول شيئا

وكان يحرص على أن يكون لكل عمل « أمير » . يقول «أيما ثلاثة خرجوا فى سفر فليأمروا أحدهم». وكان إذا خرج فى

غزوة استخلف على المدينة وعلى الصلاة . وكان يختار لأمارة الناس أحاسنهم أخلاقا فيقول « أيما رجل أم قوما وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه » ومع ذلك فقد كان يفضل الاجتماع على قائد عن الفرقة ويراها رابطة الناس . ولو كان فيها جور فيقول : « الإمام الجائر خير من الفتنة و كل لا خير فيه وفى بعض الشر خيار »

* * *

وأوتى القدرة على احتمال التكذيب والافتراء والإيذاء فى رحابة صدر وضبط أعصاب . حين ردته الطائف وقد أتاها داعيا ؛ وحين حدث أهل مكة بالإسراء .وحين ردته بنوحنيفة وحين مضى عمه أبو لهب ورائه فى كل طريق ، يكذبه ويشكك الناس فى دعوته .

وكان زعيما قادرا فى شئون الحرب . رتب الرماة وصف الفرسان وفى شئون الاقتصاد ففرض الزكاة وجمعها وأمر بقتال من يمنعها كالصلاة سواء

وكان يحب المساواة ويكره التميز . ويقول « يكره الله

عبدا يتميز عن أصحابه » وكان دستوريا فى تصرفاته : يشاور قومه فى الأمر وينزل على رأى أحدهم وكان قانونيا ضليما أفتى واجتهد وقنن القوانين وربى رجال الفقه بعده على سنن الاجتهاد وكان زعيما سياسيا يعقد المعاهدات ويرسل البعوث ويخاطب الملوك ويوفد الوفود .

كان أول عمله فى المدينة بناء مسجده ، فكان المحراب والبرلمان ، ومقر السلطة التنفيذية ومجلس الشورى ومركز القيادة الحربية العليا

وإذا نودى «الصلاة جامعة» هرع الناس إليه ليعلموا من أمر دينهم ودنياهم ما يريد رسول الله ان ينبئهم به .

وفى المحراب قامت دولة المساجد، فكان يستقبل الرسول فيه الوفود ، وتعقد فيه حلق العلم وتخرج منه الرايات والأعلام للحروب . وتقرر فيه مصائر الجزيرة العربية ، وتوضع فيه قواعد الفتيا والتشريع ، ومن هذا المسجد خرج أبطال الإسلام

وقد نزل الرسول عن رأيه لرأى الحباب بن المنذر فى بدر وفى تأبير النحل لقول أهل الخبرة .

فى تصرفاته حكمة التوجيه : يقول يسلم الراكب على الماشى ، والماشى على القاعد والقليل على الكثير .

ويقول : لايقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه .

ويقول : إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث

ويقول : لاتقوموا كما يقوم الأعاجب .

ويقول الرجل الذى جاء يودعه . إما ان تركب وإما أن تنصرف

ويقول لصاحب الدابة : أنت أحق بصدر دابتك منى .

ويقول . إذا سمعتم بالطاعون فى أرض فلا تدخلوها . وإذا وقع فى أرض وأنتم فيها فلا تخرجوها منها .

وقال : إذا ركبتم هذه الدواب فاعطوها حظها من المنازل

وقال : إن الله كتب الإحسان على كل شىء . .

* * *

وقد كانت « القيادة » فى حياته تقوم على النظام والاختيار والعزم والحزم

أرسل فى غزاة «مؤته » قائد وخليفة للقائدالأول. وخليفة للثانى . ثم وضع الخطة فيما يكون بعد ذلك لو أصيبوا ، بأن يختار الناس رجلا رابعا . كان ذلك أمره فى كل غزاة أو سرية أو سفر يضع أمر الناس فى « رجل » يتخيره ويكون ممتازاً بصفة من الصفات

فعبد الله بن جحش أقدر أصحابه فى السرية على الجوع والعطش . وأبو بكر فى أمارة موسم الحج أصبر الناس. وأفسحهم صدراً على تحمل مشاق السفر ، وعثمان فى سفارة مكة أقرب الناس إلى نفوس قريش . وأقدرهم على التفاهم معهم . والعباس فى مناداته على المسلمين الفارين من نبال « حنين » أجهر الناس صوتا . « وعلى » المبعوث بصدد براءة أقرب الناس نسباً إلى الرسول .

بل ان الرسول عندما يرسل عمرو بن العاص على رأس الجيش يضع له الخطة فى التفاهم والتبعية مع القائد الذى يشرف على المنطقة وهو أبو عبيدة .

* * *

ولما أراد أن يصادر الخمر أمر عبد الله بن عمر ، أن يأتيه بمدية ثم أرسل بها فأرهفت . يقول عبد الله ثم أعطانيها وقال اغد بها فخرج إلى أسواق المدينة وفيها زقاق الخمر ، قد جلبت من الشام فأخذ المدية فشق ما كان فى تلك الزقاق بحضرته . ثم أعطانيها وأمر الذين كانوا معه أن يمضوا معى ويعاونونى . وأمرنى أن آتى الأسـواق كلها فلم أجد فيها زق خمر إلا شققته

وهـكذا يتجلى فى تصرفه التنظيم والقاعدة مع الترتيب والإشراف وتظهر صفتى العزم والحزم بجلاء فى تصرفاته وسجاياه وتوجيهه للأمور .

حين لبس لأمته فى « أحد » لم يتراجع ، بعد أن تراجع المسلمون عن رأيهم وقال . لا ينبغى لنبى لبس لأمته أن يضعهـا حتى يقاتل

وحين انضم إلى جيش المسلمين (حبيب بن لسياف) وكان مشركا شجاعا . فرح به المسلمون ، فلما علم به رسـول الله رده وقال . لا ينتصر باهل الشرك على أهل الشرك

وحين طلب منه أحد المسلمين أن يلى ولاية فقال له : إنا لا نستعمل على عملنا من أراده

وحين أمر ألا يوقظ أحد أحداً فى بيعة العقبة الكبرى عندما تواعد مع أهل يثرب على الالتقاء فى المكان الذى كان قد عينه بعد مضى الهزيع الأول من الليل ليكون ذلك تقديرا عمليا لدرجة الإيمان والاقتناع

وحين أرسل عبد الله بن جحش فى أول سرية أمره ألا يستكره أحداً على المضى معه

ولما أرسل عثمان لأهل مكة فى الحديبية للتفاهم فى أن يدخل المسلمون مكة معتمرين وحبسه قريش . وأذيع أنه قتل ، وقف تحت شجرة الرضوان وقال لا نبرح حتى نناجز القوم ، بايعونى ، فبايعه المسلمون وضرب بكفه اليسرى وقال : وهذه بيعة عثمان

* * *

وتتجلى قوة زعامته فى تلقى الأحداث والأزمات بقلب مطمئن وعقل ناصع وعاطفة مشرقة فلا ينزعج لتلقى أى نبأ مهما بلغ خطره

وكان مع قدرته هذه رقيق الشعور

وأوتى العلم والبيان والبلاغة حتى بلغ فيها الذروة بين فصحاء العرب وبلغائهم .

وأوتى ضبط النفس فلم تحص له بادرة بالرغم مما لقى من جفوة الأعراب وسوء التعبير .

وأوتى سداد الرأى وسرعة الخاطر ووضوح التفكير وحدة الذهن واللباقة وحسن الحديث ، فكان الرجل القوى المعتز بقوته المدل بكبريائه يسلم له بعد كلمات قلائل .

مر الطفيل بن عمرو الدوسى بمكة فسعى إليه بعض وجوه قريش فقالوا له : إن محمداً فرق جماعتنا وشتت شملنا ، وأنا نخشى عليك وعلى قومك فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئاً قال فغدوت على المسجد فإذا برسول الله قائم يصلى عند الكعبة فقمت منه قريباً فأبى الله إلا أن يسمعنى منه بعض قوله .

فسمعت منه كلاما حسنا ! فقلت فى نفسى . واثكل أى والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى علىّ الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول .

فمكثت حتى انصرف إلى بيته فتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه وقلت :

يا محمد : إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا ، فو الله ما برحوا يخوفونى أمرك حتى سددت أذنى بكرسف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك فاعرض على أمرك .

فعرض عليه الإسلام وتلا القرآن . فو الله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه ، قال فأسلمت وشهدت شهادة الحق .

* * *

أوتى الجاذبية والإشعاع يجتذب به قلوب من يتصل به ، هذا إلى زهد فى الدنيا واكتفاء بالبلاغ فيها ، وإيمان بدعوته ، يملأ عليه كل أقطار نفسه فلا يبقى بعدها أمراً من أمور دنياه يهمه أو يصرفه .

ولقد كان الرسول فقيراً ومع ذلك فقد أعرض من متاع الدنيا وانشغل عنه بما هو أجل وأخطر ، وقد ضرب المثل بذلك

للمصلحين والقادة ولقد كان إغضاءه عن مطامع المـال والثراء والمتاع أول أسلحة النصر .

ولقد دخل المسجد وكان المـال مكدسا به ينتظر توزيعه فلم ينظر إليه حتى اتم صلاته .

ولم يمنع هذا التقدير من أن ينظر إلى الأمور نظرة شاملة فيقول لسعد : إنك إن تدع عيالك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس .

أو يسأل عن الرجل العابد فيقول الناس : إننا نطعمه فيقول كلكم خير منه .

والمـال عنده عدة الحق ، وما يكون له فى القلب مكان :

« لم يمتلىء جوف النبى شيئاً قط، وإن كان فى أهله لا يسألهم طعاما ولا يتشهاه إن أطعموه أكل ، وما أطعموه قبل وما سقوه شرب » .

وما رفع قط غذاء لعشاء ، ولا عشاء لغداء ، ولا اتخذ من شىء زوجين ولا قميصين ، ولا رداءين ولا إزارين ولازوجين من من النمال . وتوفى ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعا من الشمير .

وقد خير فاختار أن يكون نبيًّا فقيرا ولا يكون نبيا ملكا حتى يجوع يوما ويشبع يوما. ويقول « أجوع يوما فأدعوك وأشبع يوما فأحمدك » .

* * *

وقد سجل محمد أنه يعمل بدون أجر « ياقوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى » « وما تسألهم عليه من أجران هو إلا ذكرى للعالمين » ، « وأن توليتم فما سألتكم عليه من أجر إن أجرى إلا على الله » .

ولقد قنع بالقليل من الطعام واللباس فكان طعامه الشعير ومركزه المسجد ، ومنبره من الجريد ، وفراشه من أدم .

وكان يقول « جعل رزقى تحت ظل رمحى » وفى هذا معنى الكسب الشريف القوى الذى لا يكون إلا بالجهاد والقتال وأغتنام الغنائم ، التى لا تتحقق إلا بدحر الأعداء والإدالة منهم .

* * *

وكان أخا لكل مسلم ، وكان لأمثال أبى بكر وعمر وعلى وعثمان صاحبا ورفيقاً ، ولكن ذلك كله كان له حده المحدود

وكانت صفة القيادة هى أغلب الصفات فى تقدير الأمور وتوجيهها بين الرسول وأتباعه وقد عرف الرسول بأدب الخطاب ، لم يقدم توجيهاته فى صيغة الأمر أبداً ولكن فى صيغة الرغبة .

قال للمسلمين عند ماجاءه أهل هوازن مسلمين . إن هؤلاء قوم جاءوا مسلمين ، وقد كنت أستأنيت يسبيهم ، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً فمن كان عنده منهم شىء فطابت نفسه أن يرده فليفعل ، ومن أبى فليرد عليهم . وليكن ذلك فرضاً علينا ست فرائض من أول ما يفىء الله علينا

* * *

وقد بلغ خوفه من ربه حداً لا يبارى :

باتت مع رسول الله أوقية من مال جاء اليه ، فلما كان الليل وضعها تحت رأسه وفراشه عباءة ، فجعل لا يأخذه النوم ، فيرجع فيصلى . فقامت عائشة : يا رسول الله هل بك شىء ؟

قال لا . .

قالت : إنك صنعت منذ الليلة شيئاً لم تكن تفعله فأخرجها .

وقال: هذه التى فعلت بى ما ترين . إنى خشيت أن يحدث أمر من الله ولم أمضها .

وهو الذى يقول : بعثنى ربى على صراط مستقيم مثل حد السيف إن زغت عنه هلكت . ثم تلا « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لا تجدلك علينا به وكيلا »

* * *

وكان يحسن معاملة أعوانه قال أنس خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لى أف قط . وعندما أعطى الرجل الاعرابى شيئاً وقال له : أحسنت اليك . قال كلا ولا أجلت.

فغضب المسلمون وقاموا اليه فأشار اليهم أن كفوا .

ثم دخل منزله وأرسل إلى الاعرابى وزاده شيئاً . ثم قال : أأحسنت إليك قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً

فقال له : أنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شىء من ذلك فإن أحببت ، فقل بين أيديهم ما قلت بالأمس بين يدى حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال نعم . فلما كان الغداة

جاء فقال النبي : أن هذا الاعرابى قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضى ، أ كذلك ؟

قال نعم . فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال محمد : إن مثلى ومثل هذا الاعرابى كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه ، فتبعها الناس فلم يزدها الا نفوراً ، فناداهم صاحب الناقة . خلو بينى وبين ناقتى فأنا أرفق بها وأعلم فتوجه اليها صاحب الناقة بين يديها ، فأخذ من قمام الأرض فردها هونا هونا حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها وانى لو تركتكم حيث قال ما قال فقتلتموه دخل النار

وهكذا يضرب الأمثال فى الحكمة وبعد النظر فى معاملة الأتباع بالرفق والرعاية حتى تستقيم الأمور ويظل الجو صافيا لا تشوبه شائبه .

* * *

ومن أريحية زعامته أنه أطلق ابنة « حاتم الطائى » وقال انها ابنة من رفع ذكر العرب فى الكرم ولو لم يكن مسلما .

ومن ملامح زعامته انه كان يحرس بنفسه ثلمة فى الخندق فاذا آذاه البرد يدخل قبمة فتدفئه عائشة ثم يخرج إلى الثلمة يحرسها . .

وفى مواقف الشدة والازمات كان يقضى أموره فى طى من الكتمان حتى لا يفت انكشافها فى عضد أنصاره وأتباعه .

فى غزوة الخندق علم بأن « بنى قريظة » قد نقضت عهدها فأرسل بعض أصحابه ليستطلعوا الخبر . وقال لهم الرسول « إذا رجعتم فالحنوا لى لحنا أعرفه » .

فلما عادوا : سألهم الرسول : ما وراءكم !

قالوا : عضل والقاره (يمنون الغدر)

وهكذا : كانت زعامته النبوية ، فيها القوة فى موضعها واللين فى موضعه ، ومواجهة الاحداث بالحكمة والإيمان أو بالمداراة حسبما يتطلب الموقف .

زعامته

كما رآها « هرقل »

عند ما وجه دحية الكلبي إلى هرقل بكتاب يدعوه إلى الإسلام . جمع الناس وفيهم فريق من أهل مكة .

ودار في مجلسه هذا الحوار ، بينه وبين أبي سفيان . وهو حوار يدل على بعد غور « هرقل » وفهمه لأمور الرسالات والزعامات وتقدير الأوضاع والنظم

وهذا هو نص الحوار بين هرقل وأبو سفيان

— أيكم أقرب نسبا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي !

— أنا .

— أني سائل هذا الرجل (موجها الكلام إلى من بحضرته الذي يزعم أنه نبي . فان كذبني فكذبوه : كيف حسبه فيكم

— هو فينا ذو حسب

— هل كان من آبائه ملك

— لا

— هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ما يقول ما قال ؟

— لا

— أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم

— بل ضعفاؤهم

— يزيدون أم ينقصون

— بل يزيدون

— هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه ؟

— لا

— هل قاتلتموه

— نعم

— فكيف كان قتالكم إياه

— الحرب بيننا وبينه سجال . نصيب منه ويصيب منا

— هل يغدر

— لا . . ونحن منه فى مدة ولا ندرى ما هو صانع فيها

— هل قال هذا القول أحد قبله

— لا

ثم قال هرقل معلقا ومفصلا

سألتك عن حسبه فيكم فزعمت أنه فيكم ذو حسب وكذلك الرسل تبعث فى أحساب قومها .

وسألتك هل كان فى آبائه ملك فزعمت أن لا . فقلت : لو كان فى آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك آبائه

وسألتك عن أتباعه : أضعفاؤهم أم شرفاؤهم فقلت بل ضعفاؤهم . وهم اتباع الرسل

وسألتك هل تتهمونه بالكذب ، قبل أن يقول ما قال ، فزعمت أن لا فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله .

وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطه له ، فزعمت أن لا ، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ،

وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فزعمت أن يزيدون وكذلك الايمان حين يتم .

وسألتك هل قاتلتموه نزعمت أنكم قاتلتموه فتكون الحرب بينكم وبينه سجالا ، ينال منكم وتنالون منه وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة .

وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا يغدر وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك هل قال هذا القول قبله أحد فزعمت أن لا فقلت لو كان قال هذا أحد قبله قلت رجل ائتم يقول قبل قبله .

ثم قال هرقل :

— بم يأمركم

— يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف .

— إن يك ما تقول حقا فإنه نبي ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم ، ولو أنى أعلم أنى أخلص إليه لأحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

وليبلغن ملكه ما تحت قدمى .

قالى أبو سفيان : أمر أمر ابن أبي كيشة ، أنه ليخافه ملك بنى الأصفر !

مع أتباعه

يقول أبو هريرة : «خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لى أف قط ، وما قال لشىء صنعته لم صنعته ولا لشىء تركته لم تركته .

يواجه الأنبياء والمصلحون فى العلاقة بينهم وبين أتباعهم أدق المواقف ولقد كان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يواجه أمور أتباعه بنفسه ويرد على أسئلتهم واعتراضاتهم ، وقد قامت الرابطة بينه وبين أتباعه على الثقة الكاملة التى تحققت بعد مواقف وأحداث فقد دعا رسول الله فى بيئة عرفت بالجفاف والقسوة وبين جبابرة عتاه غلاظ بلغ حرصهم على مخلفات الآباء حداً كبيراً ويلغوا فى خصومتهم لكل جديد قدراً وافراً ، فلم يكسب مكانه الا بالصبر والتضحية والجهد الدائب من ذات نفسه .

وقد احتمل فى سبيل دعوته جفوة الأعراب وأذى قريش وجدال اليهود ودسائس المنافقين ومكر أبى جهل فى مكة وابن أبى فى المدينة .

* * *

قال لأهل مكة حين ظنوا أنه إنما يطالب بدعوته شرفا أو سلطانا عليهم :

ياقوم ما جئتكم به — أى هذا الأمر — أطلب أموالكم ولا الشرف ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل إلىّ كتابا وأمرنى أن أكون بشيراً ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه فإن علىّ أن أصبر على أمر الله حتى يحكم بينى وبينكم » .

وقد عامل رسول الله الذين اتبعوه بالحسنى والتوجيه معا ، وساس هذه القبائل بالحكمة حتى دانت له وبلغت غاية الثقة فيه وتأتى له أن يتصرف فى مصيرها .

وهو يتخير الأتباع للدعوة فى أشد أوقات المحنة : فيقول اللهم أعز الإسلام بأحب العمرين إليك : عمرو بن هشام أو عمر ابن الخطاب ويثبت قلوب أتباعه بقوة يقينه وثقته فى نصر الله وتأييده ، فيقول لعمر وقد دخل عليه الغرفة ، ورأى أثر الحصير فى جنبه الشريف: أفى شك أنت ياابن الخطاب .

ويقول لعدى بن حاتم : أرأيت الحيرة ، قال نعم ، قال فإن طالت بك حياة فلترين الظعينه ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله ، ولئن طالت بك حياة لتفتحن

كنوز كسرى ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد أحداً يقبله منه .

* * *

ولا يمنع هذا من أن يقاوم روح الخوف والضعف إذا رآها بدأت تسرى فى أتباعه ويردن ، اليأس عنهم بقوة .

عن « خباب » : شكونا إلى النبى وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة . فقلت ألا تدعوا الله فقعد وهو محمر وجهه . قال : كان الرجل فيما قبلكم يحفر له فى الأرض فيجعل فيه ، فيجاء بالمنشار ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه من عظم وعصب ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون .

* * *

ولقد كان يقبل من المنافقين مالا يقبله من المؤمنين

فقد جاءه المخلفون عن غزوة « تبوك » وطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله .

فلما جاءه المؤمنون المتخلفون ، وسلم عليه أحدهم تبسم تبسم المغضب ، وقال ما خلفك ؟ قم حتى يقضى الله فيك وفى إخوانك .

ونهى المسلمين عن كلامهم فاجتنبهم الناس خمسين ليلة حتى إذا مضت أربعين ليلة من الخمسين ، أرسل إليهم النبي أن اعتزلوا نساءكم وبقى أمرهم كذلك حتى أنزل الله توبته « لقد تاب الله عن النبي والمهاجرين والأنصار . . « إلى قوله وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت . وضاقت عليهم أنفسهم . وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه . ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم »

* * *

وكان يدع لأصحابه بعض الأمور فلا يرى فيها إلا رأيهم

وجمع فى ذلك كله البساطة إلى السماحة التى تأسر القلوب وتملأ الأرواح بالرضا والطمأنينة .

قال لوفد « هوازن » حين جاء يطلب رد ما أخذ منه : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم وأسأل لكم الناس .

ولما استجارت ابنته « زينب » لزوجها بالمسلمين ترك الأمر لأصحابه وقال : إن المسلمين يجير عليهم أدناهم

ويقول « أنس » : كنا مع النبى فى سفر . منا الصائم ومنا المفطر فنزل منزلاً فى يوم حار فسقط الصوام وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال : ذهب المفطرون اليوم بالأجر . وقد بلغ من بساطته ورغبته عن ألا يتكلف قومه من الأمر ما يجهدهم أنه كان يدع العمل وهو يحب أن يعمله خشية أن يعمل به الناس يفرض عليهم .

وهو الذى يقول : انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم

وكان يحرص على مكانة أصحابه فيقول : ليلنى منكم أولوا الأحلام والنهى

وقد كان حدبه على أتباعه حدبا عجيبا . وفى غزاة ما ، مر من مضيق ، فوقف لأصحابه . حتى يمروا وهو ينفح ظهورهم ويقول : مروا باسم الله . اللهم أحمل عليهم فى سبيلك . فانك تحمل على القوى والضعيف . والرطب واليابس . والبر والبحر .

* * *

وفى مرضه الأخير ينادى فى الناس : ياأيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى ، فليستقد منى ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه . ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء من قبلى فانها ليست من شأنى .

وقد جعل من علامات التبعية الصادقة أن يكون أحب إلى كل فرد من أهله ونفسه . « أن يكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما »

قال له عمر . أنه لا يزيده عنده حب أحد بعد نفسه إلا رسول الله فلم يلبث أن قال له . حتى أكون أحب إليك من

نفسك فقال عمر . أن رسول الله أحب إليه من نفسى التى بين جنبى . قال محمد . الآن يا عمر

* * *

ولقد كان له عليه السلام فى مواجهة المتجهين الى الإيمان بدعوته مواقف مختلفة .

عندما طرق « عمر بن الخطاب » باب دار الأرقم ابن أبى الأرقم خشيه الصحابة وظنوا أنه إنما جاء ليقتل محمداً فنهض إليه حتى لقيه فاخذ بحجزته (بمجمع ردائه) ثم جبذه جبذة شديدة وقال . ماجاء بك يا ابن الخطاب فوالله ما أرى أن تنتهى حتى تنزل بك قارعة

قال عمر . جئت لأؤمن بالله وبرسوله . وبما جاء من عند الله فكبر الرسول تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم .

أما « عدى بن حاتم الطائى » فانه تلقاه بصورة أخرى .

يقول عدّى : دخلت على محمد وهو فى المسجد فسلمت عليه فقال : من الرجل ؟

فقلت: « عدى بن حاتم»

فقام وانطلق بى إلى بيته . فوالله انه لعامد بى إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف طويلا ، تكلمه فى حاجتها

قال : فقلت : والله ما هذا بملك .

قال : ثم مضى بى رسول الله حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفا فقدمها إلى فقال : اجلس على هذه .

قال : فقلت بل أنت فاجلس عليها . قال : بل أنت .

فجلست عليها وجلس هو على الأرض .

قال فقلت فى نفسى : والله ما هذا بأمر ملك .

ثم قال : ايه يا عدى بن حاتم . ألم تك ركوسيا فان ذلك لم يكن يحل لك فى دينك .

قلت : اجل والله . وعرفت انه نبى مرسل . يعلم ما يجهل

قال : لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم . فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد

من يأخذه . ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه إنك ترى أن الملك والسلطان من غيرهم . وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم . قال فأسلمت .

وقد رسم « القرآن » العلاقة بينه وبين أتباعه فى الطاعة والاستئذان « واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » وغض الصوت عنده ونهى عن الجهر بالقول له . أو المناداة من وراء الحجرات .

وقد بلغ حب أصحابه له مداه فكانوا يقتدون به ، وكان «خالد» يلبس قلنسوة ضفرها من ناصية رسول الله ، وكان عبد الله ابن عمرو يدور بدابته فى المكان الذى كان يدور فيه الرسول بدابته .

* * *

وحين دعا إلى البذل فى غزوة « العسرة » جاء أبو بكر بماله كله . وجاء عمر بنصف ماله ، وجاء العباس بتسعين ألفا وحمل عبد الرحمن مائتى أوقية ، وتصدق عاصم بتسعين وسقا من التمر ، وجهز عثمان ثلث الجيش ثم جاء بألف دينار ففرغها فى حجر النبي فجعل يقلبها ويقول . ماضر عثمان ما فعل بعد اليوم .

(٢)

ويقف محمد مع أصحابه موقف الأبوة والأخوة والصداقة الغامرة بالحب والعطف والعفو :

مر على « مصعب بن عمير » وهو مقتول فى برده فقال :
لقد رأيتك بمكة ، وما بها أحد أرق حلة ولا أحسن لمة منك .

ثم أنت أشعث الرأس فى بردة مرقعة .
وبكى رسول الله لما كان فيه مصعب من النعمة .

* * *

وفى « الغزوات » كان يسأل عن أصحابه يتعرف أمرهم ، وهو الذى قال فى غزوة من الغزوات . من رجل ينظر إلى ما فعل « سعد بن الربيع » أفى الأحياء هو أم فى الأموات .
فقال رجل من الأنصار ، أنا أنظر لك يارسول الله — ما فعل سعد ، فنظر فوجده جريحا فى القتلى وبه رمق ،

قال ، فقلت له . إن رسول الله أمرنى أن أنظر أفى الأحياء أنت أم فى الأموات .

قال : أنا فى الأموات فأبلغ الرسول الله عنى السلام . أنه لاعذر لكم عند الله أن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف .

وفى غزوة العسرة (تبوك) عندما مضى محمد من ثنية الوداع جعل يتخلف عنه قوم ، فيقولون . تخلف فلان

فيقول . دعوه فأن يك فيه خير يلحقه الله بكم وان يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

وأبطأ « أبو ذر » من أجل بعيره ، فقد كان نضواً أعجف ثم عجز فتركه وحمل متاعه على ظهره . وصار ماشيا وحده فى حر شديد حتى لحق رسول الله نصف النهار . وقدبلغ منه العطش فقال محمد : مرحبا بأبى ذر : يمشى وحده ويموت وحده ، ويبعث وحده : ما خلفك !

فاخبره بعيره . فقال محمد . أن كنت من أعز أهلى على تخلفا . لقد غفر الله لك بكل خطوة دبنا إلى أن لقيتنى .

وتبدو هذه الرحمة ، وهذا العفو فى حادث « حاطب بن أبى بلتعة » يقول علىّ ابن أبى طالب :

بعثنى رسول الله أنا والزبير والمقداد وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاب فخذوه . فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ ، فقلنا . أخرجى الكتاب قالت ما معى كتاب فقال . لتخرجن الكتاب أو لتنزعن الثياب

فأخرجته من عقاصها فأتينا الرسول فإذا فيه : من حاطب ابن أبى بلتعة إلى الناس من المشركين بمكة يخبرهم أمرا من أمر رسول الله . فقال . ياحاطب ماهذا قال : يا رسول الله لا تعجل علىّ . أنى كنت أمرؤا ملصقا فى قومى . وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهليهم فأحببت إذا فاتنى ذلك من النسب منهم يدا يحمون بها قرابتى ولم أفعل ذلك كفرا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ولا ارتداد عن دينى

قال محمد : انه صدقكم .

قال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق .

قال محمد ، انه أشهد بدراً ، ومن يدريك لعل الله عزّ وجل اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرته لـكم .

* * *

وتتمثل الرابطة بين القائد وأتباعه فى تـكتم خطط الحرب والعمل .

لما خرج لفتح مكة تجهز الناس من غير أن يعرفوا وجهتهم حتى نُزل رسول الله بالوجه (مكان) والناس لا يدرون أين يتوجه أإلى قريش أم إلى هوازن أم إلى ثقيف .

وجاء كعب وأنشد شعرا ليعلم الوجه فتبسم محمد ولم يزد .

* * *

وعندما رأى المؤمنون « الأحزاب » فى غزوةالخندق ، وقد رمتهم عن قوس وأحده قالوا : هذا ما وعدنا اللهورسوله وصدق اللهورسوله وما زادهمإلا إيمانا وتسليما .

ومن لفتاته البارعة أنهيرسل أبا سفيان إلى الطائف ليحطم الأصنام وقد كان من أعدى أعداء الإسلام قبل ذلك بقليل .

وقد بلغت رابطة الحب والإخاء فى نفس زيد بن حارثه مبلغا جعله لا يعود إلى والده الذى عاد بعد غيابه ولم يفضل بمحمد أحداً وحين عرض على الصديق أن يزوجه أبنته طفق يسأل : هل يجوز أن يزوج ابنته لمحمد وهو أخ له حتى بين له الرسول أن الإخاء فى الله لا يمنع من النسب .

وقد عبر محمد عن صحبة أبى بكر بأوفى عبارة حين قال (ما أحد أعظم يدا عندى من أبى بكر واسانى بنفسه وماله وأنكحنى ابنته »

ويتجلى هذا فى فرحة بلال عندما جاءه الموت فقد كان يهتف فى فرح وحبور . غدا ألقى الأحبة : محمداً وصحبه .

ولم يكن هذا غريبا فقد كان فى سماحة . الرسول وأريحتيه وبشاشته ما يفجر الماء من هذه القلوب المتحجرة الصلبة تبادلته حبا بحب ووفاء بوفاء

* * *

ولقد كان ذلك القائد أبعد الناس عن مطامع الحياة فلا عجب

أن يغرى ذلك أصحاب المثل العليا بالإعجاب. رجل يعرّض نفسه للحتوف والمخاطر والخصومات ويحتمل الأذى فى أشد صوره قسوة ومرارة فى سبيل فكرة لا مطمع من وراءها .

وكان إلى ذلك يحلب شاته بيده ويرقع ملابسه ويخصف نعله وقد عمل فى المسجد والخندق بيده وحمل التراب وجمع الحطب وكان يردف خلفه . ويكره أن يتمثل له الناس قياما . ويجلس حيث ينتهى به المجلس . وإذا مشى مشى الناس من أمامه وحوله

وكان يدخل الداخل إلى المسجد فلا يعرف محمد من بساطته حتى يسأل أيكم النبى . هذا إلى بساطة فى الطعام والملبس وبشاشة فى المقابلة فلا ينزع يده حتى يكون الآخر هو الذى ينزعها، ولاينصرف حتى يكون محدثه هو المنصرف ، وإذا أشار إلى أخطاء الناس لم يذكرهم

* * *

كل هذا إلى فصاحة ووسامة ودمائة وصباحه ، فهو «الجواد حين يُسأل « والحليم » حين يستجهل . « والبر » بمن يعاشر، إلى ثقة بالله لاحدلها فلا يقبل المساومة وهو فى حاجة إلى نصير

واحد • ولا مجاملة على حساب الدعوة . مع وضوح فى الفهم ونصاعة فى العبارة وحرص على سلامة الجماعة ، وامتزاج روحى وعاطفى . ومشاركة فى السراء والضراء . كل هذا جمع القلوب حوله محبة مخلصة وفيّة .

ولقد تنافس الحيان (الأوس والخزرج) على مرضاة رسول الله حتى قبل أن الأوس كانت لاتصنع شيئا فيه عن رسول الله غناء إلا قالت الخزرج والله لاتذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله فى الإسلام

ولم تجتمع شبه الجزيرة يوما فى تاريخها كله على زعيم قبله ، ولم يكن مصدر هذه الزعامة إلا الصبر والفقر

عن ابن عباس أن رسول الله دخل على أم هانىء يوم فتح مكة و كان جائعا فقال لها : أعندك طعام

قالت . إن عندى لكسرة يابسة . وانى لأستحى أن أقدمها لك .

فقال . هلميها .

فكسرها فى ماء وجاءته بملح . فقال . ما من أدام !

قالت ما عندى إلا شيء من خل .

قال : فهلميه :

فلما جاءت به ، صبه على طعامه فأكل منه ثم حمد الله وأثنى عليه وقال .

نعم الادام الخل يا أم هانىء . لايقفر بيت فيه خل وهذه كانت مائدة الرسول يوم الفتح الأكبر .

. . .

ولذلك لم يكن عجيبا على أمثال عمر وخالد وعمر والزبير وطلحه وكلهم من ذوى الحجى والعقول الراسخة أن يكونوا جنوداً له وقد أسلم خالد وهو من أبطال قريش المغاوير ولكنه رضى أن ينضوى جنديا فى الصف . ولم يصل إلى مركز القائد إلا بعد أن جاء دوره الطبيعى .

(٣)

وقد بلغ من حب أصحابه له أن يخشى ثوبان « فراقه » فى الآخرة فأتاه يوما شاحب اللون ، فسأله عن حاله فقال :

« يارسول الله مابى من وجع غير أنى لم أرك أشتقت واستوحشت وحشة عظيمة ، فذكرت الآخرة حيث لا أراك هناك لأنى إن دخلت الجنة فأنت تكون فى درجات النبيين فلا أراك .

فابتسم محمد وأنزل الحق قوله : « ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » .

* * *

وبلغ من حب أبى أيوب الأنصارى لمحمد أن يكبر عليه أن يقيم هو بالدور الأعلى والرسول من أسفله ، وقد أقام عنده عند قدومه إلى المدينة .

ويروى قصته فيقول : لما نزل رسول الله فى بيتى نزل فى الأدنى وأنا وأم أيوب فى الأعلى . فقلت له يارسول الله : بأبى أنت وأمى إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى فاظهر أنت فكن فى العلو وننزل نحن فنكون فى السفل .

فقال يا أبا أيوب : أن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى أسفل البيت .

ولقد انكسر جب لنا فيه ماء فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا . مالنا لحاف غيرها ، ننشف بها الماء تخوفا من أن يقطر على رسول الله منه شيء فيؤذيه .

• • •

ويذهب عمر ليستأذن رسول الله فى أداء فريضة الحج فيقول له الرسول : لا تنسنا يا أخى من دعائك فيقول : لم تطلع على شمس يوم أعظم من هذا اليوم .

ويخشى أبى أيوب خالد الأنصارى على رسول الله ليلة عرسه بصفية أبنة حيي بن أحطب ، فيبيت حول خيمته متوشحا سيفه

فلما أصبح الرسول وسأله مالك ؟ قال خفت عليك من هذه المرأة وقد قتلت أباها وزوجها .

وتطوى أم حبيبة ابنة أبى سفيان زوج النبى فراش رسول الله من أبيها. فلما سألها . أطوته رغبة بأبيها عن الفراش أم رغبة بالفراش عن أبيها .

قالت . هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه .

قال . لقد أصابك يابنية بعدى شر كثير .

ويقول سعد بن عبادة وهو يتكلم قبل « بدر »

يارسول الله . إنا قد خلفنا من قومنا قوما ما نحن بأشد حبا لك منهم ، ولا أطوع لك منهم ، لهم رغبة فى الجهاد ونية ، ولو ظنوا يارسول الله أنك ملاق عدوا ما تخلفوا ولكن إنما ظنوا أنها العير .

يارسول الله . نبنى لك عريشاً فتكون فيه ونعد عندك رواحلك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا عليه كان ذلك

ما أحببنا وإن تكن الأخرى جلست على رواحلك فلحقت بمن وراءنا .

ثم يقول سعد :

إننا قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به حق فاعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة ، فامض يا نبي الله لما أردت ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وصل من شئت ، واقطع من شئت وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت من أموالنا أحب الينا مما تركت .

والذى نفسى بيده ماسلكت هذا الطريق ومالى بها علم ، وما نكره أن نلقى عدونا ، وإنا لصبر فى الحرب ، صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا بعض ماتقر به عيناك .

* * *

وهذا « صهيب » لما أراد الهجرة من مكة ، قال له كفار قريش . أتيتنا صعلوكا حقيرا فكثر مالك عندنا وبلغت الذى بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك . والله لا يكون هذا !.

وتبلغ حماسة إيمانه وحبه لقائده فيقول : أرأيتم إن جعلت لـكم مالى ، أتخلون سبيلى ·

قالوا : نعم . قال فانى . قد جعلت لـكم مالى

فبلغ ذلك رسول الله فقال . ربح صهيب . ربح صهيب

* * *

وبلغ من حب « عثمان بن مظعون » لمحمد أن رد جوار الوليد ، وقال له . ياأبا عبدشمس . وفت ذمتك وقد رددت اليك جوارك

قال الوليد : يا ابن أخى . لعله آذاك أحد من قومى ؟

قال عثمان : لا . ولـكنى أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير غيره

قال الوليد : فانطلق بنا إلى المسجد فاردد جوارى علانية كما أجرتك علانية .

وما ابث أن أخذ « لبيد بن ربيعة » ينشد فى قريش : «ألا كل شىء ماخلا الله باطل » قال عثمان صدقت : «وكلّ نعيم لامحالة زائل» قال كذبت . نعيم الجنة لا يزول أبداً .

فلطمه لبيد على عينه فاخضرت ،

فقال له الوليد : لقد كنت فى غير حاجة إلى ماحدث لك لو بقيت فى جوارى ، قال عثمان : والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله ، وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر .

* * *

ومن هذا الحب ماصنع « عمير بن عدى » الأعمى ، فقد كان يغيظه أن تؤذى « عصماء بنت مروان رسول الله ، وتعيب الإسلام ، فنذر عمير لئن رد الله رسول الله من بدر إلى المدينة ليقتلها .

فلما رجع النبى من بدر جاءها ليلا حتى دخل عليها بيتها ، وكان ضريراً ثم نحى الصبى عنها ، ووضع سيفه فى صدرها حتى أنفذه من ظهرها ، وأتى فصلى الصبح مع النبى صلى الله عليه وسلم .

فلما انصرف نظر محمد إليه وقال . نصرت الله ورسوله ياعمير فقال : هل على من شىء فى شأنها ؟

قال محمد : لا ينتطح فيها عنزان

قال لأصحابه : إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب فانظروا إلى عمير بن عدى ، قالوا ياعمير ، أنت قتلتها قال . نعم فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ! فوالذى نفسى بيده لو قلتم ماقالت لضربتكم بسيفى هذا حتى أموت أو أقتلكم .

* * *

أما « أبو دجانه » فقد ترس عن النبى بظهره فى غزوة (أُحد) والنبل يقع عليه من كل مكان وهو لا يتحرك .

وبلغ هذا الأيمان الصادق أن قال عبد الرحمن بن أبى بكر لأبيه . لقد لقيتك فى بدر وكان عبد الرحمن فى صفوف المشركين فأعرضت عنك قال أبو بكر . ولكنى والله لو رأيتك ما أعرضت عنك .

ولما اعتقل المشركون خبيبا قالوا له : أتحب أن محمداً مكانك وأنت جالس فى بيتك . قال والله ما أحب أن تشوك محمداً شوكة وهو فى مكانه . فلما هدد بالقتل . قال : والله ان قتلى فى الله لقليل فجعلوا وجهه من حيث جاء . قال ما صرفكم وجهى عن القبلة .

ودار بوجهه . وقال : اللهم إنى لا أرى إلا وجه عدو . اللهم ليس هاهنا أحد يبلغ رسولك عنى السلام فبلغه أنت عنى السلام .

* * *

ولما غنم المسلمون بنى النضير ، بعث محمد إلى الأنصار وخطبهم وذكرهم بما صنعوا بالمهاجرين من إنزالهم إياهم فى منازلهم وإيثارهم على أنفسهم .

ثم قال : إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله علىّ من بنى النضير . وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم .

ويقول سعد بن عبادة : يا رسول الله بل تقسم للمهاجرين وتجعلهم فى دورنا كما كانوا . وتنادت الأنصار : رضينا وسلمنا رسول الله .

* * *

وقد بلغ حب حمزة وعمر وأبى بكر لمحمد مبلغه .

عاد حمزة من سفره فعلم أن قريشا آذت محمداً فملأه الغضب واتجه إلى الكعبة . ولم يقف مسلما على من كان حوله كعادته .

بل قصـــــد إلى أبى جهل فدفعه بالقوس فشج رأسه ثم راح يعلن إسلامه .

أما علىّ فقد افتدى محمداً ليلة الهجرة وقريش تتآمر على قتله فبات فى فراشه بعد أن تسجى ببرده الأخضر .

ومثل هذا موقف أبى بكر فى الغار حينما كان يزعجه وقع أقدام الباحثين عن رسول الله . وهو معتصم بالغار فيقول محمد لأبى بكر . لا تحزن إن الله معنا . ما ظنك باثنين الله ثالثهما ،

فيجيب أبى بكر : إن قتلت فإنما أنا رجل واحد . أما إن قتلت أنت فقد هلكت الأمة .

فيرد الرسول لا تحزن إن الله معنا .

ولقد بلغ بأبى بكر حبه للنبى ، مبلغا لا يدانى ، فقد كان يستأذن فى الهجرة فيستأخره الرسول . ويقول له انتظر . لعل الله يجعل لك صاحبا .

ولقد دفعه ذلك إلى أن يشترى دابتين ويعدها للرحلة ثقة منه أنه سيكون رفيق الرسول .

حتى جاءه النبي فى الهاجرة ، فى ساعة كان لا يأتى فيها ، فلما رآه أبو بكر . قال . ما جاء رسول الله فى هذه الساعة إلا لأمر حدث. قال. فلما دخل . تأخر له أبو بكر عن سريره .

قالت عائشة فجلس رسول الله ، وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء .

فقال رسول الله : اخرج عنى من عندك .

قال : يا رسول الله : هما ابنتاى . وما ذاك فداك أبى وأمى .

قال : إن الله قد أذن لى فى الخروج وفى الهجرة .

قال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله .

قال : الصحبة . .

قالت عائشة فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ .

قال الصديق : يا نبى الله : إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا . فانطلق هو ورسول الله إلى غار « ثور » . وجعل عبد الله بن أبى بكر يقضى نهاره فى قريش حتى إذا أمسى أخبرهما

الخبر ولقى عامر بن فهيرة يرعى أغنامه ثم يرعيها عليهما (يأتيهما) إذا أمسى فى الغار .

وجاءه جابر فى غزوة الخندق . وقد رأى رسول الله خميصا (جائما) فأتى امرأته فأخبرها ما رأى من خمص رسول الله فقالت : والله ما عندى إلا هذه الشاة ، وقدح من شعير قال : فاطبخى وأصلحى . فطبخوا بعضها . وشووا بعضها وخبزوا الشعير .

فأتى جابر إلى النبى : فقال : يارسول الله قد صنعت لك طعاما فأت أنت ومن أحببت من أصحابك فشبك رسول الله أصابعه بين أصابع جابر وقال : نادى فى الناس !

وقال الرسول : أجيبوا جابر يدعوكم فاقبلوا معه .

* * *

وقدم الناس محمدا عن أهليهم دون أن يترددوا . عاد مصعب ابن عمير فبدأ بمحمد . فأرسلت إليه أمه تقول .

أتقدم بلداً أنا فيه لا تقدم بى .

فقال . ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله .

فخاصمته ولكنه كان مقتنعاً بأن رسول الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأهليهم

* * *

وبلغ الأمر أشد من هذا فقد طلب محمد إلى المسلمين بعد (أحد) أن يخرجوا . وأرسل إليهم من يقول أن رسول الله يأمركم أن تطلبوا عدوكم ، ولا يخرج ممنا إلا من شهد القتال بالأمس .

فقال . أسيد بن خضير : وبه سبع جراحات يريد أن يداويها سمعا وطاعة لرسول الله . ولم يعرج إلى دواء .

وفى غزاة بنى قريظة مادك فنادى رسول الله .

« من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة » والناس فى المسجد يوقدون النيران يتكمدون بها الجراح فما لبثوا أن تركوها وانصرفوا إلى أمر رسول الله .

(٤)

ولعل أبرز مواقف الصلة بين محمد وأتباعه. موقف البيعة ويسجل القرآن البيعة فيقول «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله» ويقول الرسول « ما من مؤمن إلا وأنا أولى به فى الدنيا والآخرة إقرءوا إذا شئتم . النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم . فإنما مؤمن مات وترك مالا فلورثته . ومن ترك ديناً فليأتنى فأنا مولاه »

وأظهر بيعتان فى عهده . هما بيعة العقبة وبيعة الرضوان . وقد روى المؤرخون أمر بيعة العقبة الكبرى هكذا

« واعدهم رسول الله إذا هدأت الرجل أن يوافوه فى الشعب الأيمن إذا انحدروا من « منى » بأسفل العقبة ، وأمرهم إلا ينبهوا نائما ولا ينتظروا غائبا . فخرج القوم بعد هدأة يتسللون . الرجل والرجلان ، وقد سبقهم رسول الله إلى الموضع ومعه العباس بن عبد المطلب · ليس معه أحد غيره فكان أول من طلع على رسول الله . رافع بن مالك الزرقى .

ثم توافى السبعون ومعهم امرأتان . فتكلم العباس فقال . إنكم قد دعوتم محمداً إلى مادعوتموه إليه . ومحمد من أعز الناس فى عشيرته ومنعه فى بلده . وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم ترون وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فانتم وما تحملتم وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج فمن الآن فدعوه لأنه فى عز ومنعة فى قومه وبلده

ثم تلى رسول الله القرآن . ودعاهم إلى الله ورغبهم فى الإسلام وذكر الذين اجتمعوا له . ثم تكلم بعد ذلك أبا الهيثم بن التيهان وأجاب إلى ما دعا إليه الرسول وصدقه . وقالوا نقبله على مصيبة الأموال وقتل الأشراف

ولغطوا . . فقال العباس وقد أخذ بين الرسول . احفظوا جرسكم فان علينا عيونا . وقدموا ذوى أسنانكم فيكونون هم الذين يلون كلامنا منكم فانا نخاف قومكم عليكم .

ثم إذا بايعتم فانصرفوا إلى مجالسكم . فبايعهم الرسول على

السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، وأن نقول الحق أين كنا ، لا نخاف فى الحق لومة لائم .

(ثم بايعهم رسول الله على أن يمنعوه منه نسائهم وأبنائهم ووقف زعيم الخزرج فقال لإخوانه : يامعشر الخزرج أعلمتم علام تبايعون هذا الرجل . انكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم إذا انهكت أموالكم مصيبة . وأشرافكم قتلا اسلمتوه . فمن الآن فدعوه : فهو والله ان فعلتم خزى الدنيا والآخرة . وان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

فأجاب القوم : اننا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك .

قال رسول الله : الجنة . .

ومدوا إليه أيديهم فبسط يده فبايعوه . وكان أول من ضرب على يد رسول الله البراء بن معرور .

قال الرسول : اخرجوا لى اثنى عشر نقيبا يكونون على من

فوقهم . وان موسى أخذ من بنى إسرائيل اثنى عشر نقيبا فلا يجدون أحد منكم فى نفسه أن يؤخذ غيره ، فلما اختارهم قال: انفضوا إلى رحالكم .

قال سعد بن عبادة : يارسول الله . والذى بعثك بالحق ائن أحببت لتميلن غداً على أهل « منى » بأسيافنا ، وما أحد عليه سيف تلك الليلة غيره .

قال الرسول لم نؤمر بذلك . فانفضوا إلى رحالكم .

* * *

أما فى « بيعة الرضوان » فقد أرسل النبى عثمانا ليقنع قريش بدخول مكة ، فلما طال مكثه وقد بلغه أنه قتل قال . إن الله أمرنى بالبيعة . فأقبل الناس يبايعونه حتى تدالوا فما بقى لهم متاع إلا وطئوه . ثم لبسوا السلاح وهو معهم قليل .

وقامت أم عمارة إلى عمود كانت تستظل به فأخذته بيدها . وكان رسول الله يبايع الناس ، وعمر بن الخطاب آخذ بيده فبايعهم على الموت ، وكان أولُ من بايع سنان ابن أبى سنان . ووهب

ابن محصن . فقال يارسول الله . أبايعك على ما فى نفسك فكان رسول الله يبايع الناس على بيعة سنان .

وكان الرسول يبايع تحت الشجرة الخضراء .

ورأت عيون قريش سرعة الناس إلى البيعة وتشميرهم إلى الحرب ، فاشتد رعبهم وخوفهم ، وضرب رسول الله بيده الأخرى وقال — هذه بيعة عثمان .

ولما نفر الناس فى غزاة حنين عن سهام المشركين التى استقبلوهم بهـا فى عماية الصبح وتفرقوا عن رسول الله ناداهم بصوت العباس : ياأصحاب بيعة العقبة . . ياأصحاب بيعة الرضوان فما أن صك أسماع الناس اسم البيعة حتى عادوا مسرعين يرددون « يا لبيك . . يا لبيك »

الرسول مع خصومه

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى . إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى .

« ولكن عافيتك أوسع لى .

« أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات . وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

« دعاء النبى عند حائط ثقيف »

(١)

لقى محمد من كيد الخصوم ومكر المنافقين عنتا وإرهاقا بالغين ، حتى لقد ألزموه حائط ثقيف يدعو الله دعاءه الحار المتدفق الذى يصور مدى مابلغه النبي المؤيد بالوحى ، من ضيق . ولقد دفعه هذا المكر إلى أن يهاجر من مكة وهى أحب أرض لله إلى الله وأحب أرض الله إلى الرسول ، ولولا أن أهلها أخرجوه منها ماخرج .

وتجمعت عليه فى موقعة الخندق الأحزاب كلها رمته العرب كلها عن قوس واحدة . مضت تتآمر مجتمعة وتحالفت لتقاومه ، وتكيد له ، ولكن محمداً لم يلن . ولم يصرفه ذلك عن دعوته . وتلقاه صابراً : واحتمله محتسبا راضيا . وظل يواجه تكاليف النبوة وأعباء الدعوة فى صبر وثقة بنصر الله أتم الله له الفتح ، وملكه نواصى خصومه وأعدائه . فما زاد عن أن قال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ولقد أثر عنه أنه كان يدارى المنافقين ولا يواجههم بالخصومة ، ويبش فى وجوههم

وعندما طلب إليه أن يلعنهم قال : لم أبعث فاحشا ولا متفحشا ولا لعانا ولا سخابا بالأسواق وإنما بعثت هاديا ورحمة . كما عفا عن الرجل الذى رفع السيف فوق رأسه وهو نائم . وقال لعمر عندما أشار بقتل عبد الله بن أبىّ : أتريد أن يقول الناس : إن محمداً يقتل أصحابه .

* * *

ويعرف مقاتل الرجال : فيحبس أبا سفيان عند خطم الخيل حتى ينظر إلى المسلمين . وقد جعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة ، وأبا سفيان يسأل العباس : من هذه ؟ .

فيقول : هذه غفار . هذه جهينة . فيقول ومالى ولغفار. مالى ولجهينة حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها . قال من هذه ؟ قال هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة ومعه الراية . فأخذ أبا سفيان ولم يلبث أن قال :

لقد أصبح ملك ابن أخيك ياعباس الغداة عظيما .

* * *

وهوعندما تأزمه الأمور يتجه إلى الله :

« اللهم عليك بعمرو بن هشام وعتبة بن ربيعة . وشيبة بن ربيعة . والوليد بن عتبة . وأمية بن خلف وابن أبى معيط وعمارة بن الواليد . ويقول : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحاول وتكذب رسولك : اللهم فنصرك الذى وعدتنى »

وفى مواقف الرحمة يقول :

« اللهم أذقت أول قريش نكالاً فأذق آخرهم نوالا ... »

« اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون » .

* * *

وقد بلغ الأمر فى الخصومة بينه وبين قريش حداً لم يصل يوما ما بين فريق وفريق فقد ألقوا عليه التراب وحاولوا قتله واتهموا زوجه بالإفك . واتهموه بأنه ساحر وكذاب ومجنون ، وسقوا أصحابه كؤوس العلقم خلال ثلاثة عشر حجة ومع ذلك فلما أمكنه الله منهم عفا عنهم

(٢)

لقي الرسول منذ اليوم الأول لدعوته خصوما وأعداء يكيدون له ويحسدونه ويحقدون عليه ، ما وسعهم الكيد والحسد والحقد.

وكان آل محمد من قريش ، وأعمامه ، أول خصومه ، وامتدت خصومة قريش لربيبها ثلاثة عشر عاما كاملا فى مكة ، فما كان يشغل قريشاً إلا هذا الأمر الجديد الذى جاء به محمد ، فهى مصبحة وممسية ، وهو حديث سرها وجهرها ، ونجواها فى ناديها وقصتها التى لا تنتهى .

ولما انتقل الرسول إلى المدينة واجهته خصومة من نوع آخر، ممثلة فى اليهود والمنافقين .

وبدأ الاضطهاد فى مكة حين حوصر المسلمون فى الشعب ثلاث سنوات لا يباع لهم ولا يبتاعون ، حتى اضطر أغلبهم إلى الهجرة للحبشة ، واضطر محمد بعد موت عمه أبى طالب إلى

الهجرة للطائف يطلب المنعة ، فلم يلق إلا لونا جديداً من العنت والأذى .

* * *

وكان أبو لهب يمضى وراء محمد يحرض عليه كل من يستمع إليه ، فلما عزم المسلمون على الهجرة دبرت قريش تلك المؤامرة الضخمة لقتل الرسول . وترصدوا له حول حجرته حتى علموا أنّ عليّاً هو النائم فى فراشه والمتسجى ببرده .

وفى المدينة بدأ اليهود حملة من الحجاج والتآمر والكيد والتكذيب ، وأعانهم المنافقون الذين تظاهروا بالإسلام مبطنين له الكيد ، محرضين على حرب المسلمين ، وكان على رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول .

وكان الرسول حريصاً على أن يغضى عن هذه المؤامرات ويعرض عنها آخذا بالعفو آمراً بالمعروف .

ولم يأذن بمواجهة هؤلاء المنافقين إلا بعد طفح الكيل وخيف على الدعوة نفسها .

ويتجلى حرصه على مواجهة خصومه بالرفق فى صلح الحديبية فقد أملى الرسول إلى كاتبه أن يكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل سفير قريش : ما الرحمن الرحيم ! اكتب باسمك اللهم .

ولما ذهب على عليه : قال النبى اكتب :

هذا ما صالح عليه محمد رسول الله .. قالوا : لو شهدنا أنك رسول الله لم نقاتلك ولكن اكتب باسمك وباسم أبيك . (ورضى النبى . والمسلمون غاضبون يكاد الحنق يذهب بألبابهم .

***

ومضى محمد رحيما بأعدائه يطاولهم ويعفو عنهم ، فقد عفا عن فضالة بن عمير وقد أراد أن يقتله . ووضع الرسول يده على صدر فضالة فسكن قلبه وقال : والله ما رفع يده عن صدرى حتى كان أحب خلق الله إلىّ . وما أحد من خلق الله أحب إلىّ منه . .

وعفا عن صفوان ، إذ خرج بعد أن دخل النبى مكة هاربا إلى البحر ، يريد أن يقذف نفسه فيه . فذهب عمير بن وهب إلى رسول الله يطلب له الأمان ، فأمنه . فقال اعطنى آية يعرف بها

امانك . فأعطاه عمامته التى دخل بها مكة . فأدركه عمير . وهو يريد أن يركب البحر . فناداه : يا صفوان . فداك أبى وأمى . الله الله فى نفسك أن تهلكها . فهذا أمان رسول الله قد جئتك به . وقال انى أخافه على نفسى . قال . هو أحلم من ذلك وأكرم .

فوقف على محمد . وقال صفوان . إن هذا يزعم أنك أمنتنى . قال صـــــدق . قال فاجعلنى بالخيار شهرين . قال أنت بالخيار أربعة أشهر .

* * *

وطلب عمر من النبى أن يخلع ثنيتى سهيل بن عمرو ، فلا يقوم خطيبا فلم يقبل النبى . . وقال لعمر . لا أمثل به فيمثل الله لى . .

وعسى أن يقوم مقاما لا تذمه . وقد كان . فلما ارتدت العرب وهم أكثر أهل مكة . وخافهم عتاب بن أسيد عامل النبى قام سهيل فحمد الله وأثنى عليه . ثم ذكر وفاة النبى وقال . إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فمن رابنا ضربنا عنقه .

ومن أحاديث عفوه عن خصومه ، قصة « كعب بن زهير »

قال : من لقى منكم كعب بن زهير فليقتله ، فكتب إليه يخبره : أن الرسول أهدر دمه ، فإن كان له حاجة فليذهب إليه فإنه لا يقتل من جاءه تائباً .

فلما جاء قال يارسول الله : إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه ذلك ، إن أنا جئتك به ، قال نعم ، قال أنا يارسول الله كعب بن زهير .

ووثب رجل من الأنصار ، فقال يارسول الله : دعني وعدو الله أضرب عنقه ، ثم أنشد قصيدته « بانت سعاد » حتى قال :

أن الرسول لنور يستضاء به   وصارم من سيوف الله مسلول

فرمى الرسول بردته الشريفة إليه وعفا عنه .

* * *

وخاصمه رجال كانوا من كبار قومهم . قال الوليد بن المغيرة أينزل القرآن على محمد واترك أنا وأنا سيد قريش ويترك أبو مسعود ابن عمير الثقفي ونحن عظيما القريتين . وقال أبو جهل . تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف ، اطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا . وأعطوا

فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب . وكنا كفرسى رهان .
قالوا منا نبىّ يأتيه الوحى من السماء .

ولعل قصة عبد الله بن أبى سلول . من أبلغ قصص المنافقين كان قومه ينظمون له الخرز قبل وصول النبى إلى المدينة ليتوجوه مابقيت لهم الأخرزة واحدة عند يوشع اليهودى . قال لأصحابه فى إحدى الغزوات : لقد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أمرنا وجلابيب قريش (من أسلم) إلا كما قال الأول . سمن كلبك يأ كلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، هذا مافعلتم حتى استغنوا ، أما الله لو أمكتم عنهم لتحولوا إلى غير بلادكم ، وبلغ ذلك رسول الله ، وقال عمر للنبى مرْ عباد بن بشر بقتله ، وقال النبى : كيف ياعمر إذا تحدث الناس إن محمداً يقتل أصحابه .

وارتحل رسول الله فى ساعة ما كان يروح فيها .

وجاءه عبد الله (بن عبد الله بن أبى بن سلول) وهو من المسلمين ، فقال : يارسول الله ، انه بلغنى أنك تريد قتل أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت لابد فاعلا فرنى به ، فإنا أحمل إليك

رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني . وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار .

وابتسم رسول الله ، وقال : بل نترفق به وتحسن صحبته ! وظل (أبي) يناوىء النبي طويلا ، وانسحب من (أحد) بعديد من أصحابه .

فلما مات صلى النبي عليه بعد أن كفنه في قميصه ، ووقف عمر يحول بين النبي وبين الصلاة . فرده النبي

ويقول : ألم يخبرني الله أن أستغفر لهم أو لا أستغفر ، لو علمت أني لو ردت عن السبعين غفر له لزدت .

(٣)

ولكن محمداً كان جباراً إذا واجه الخطار على دعوته حتى لقد كان يقتل المشركين بيده أقبل ابن خلف ، وجعل يصيح بأعلى صوته : يا محمد : لا نجوت إن نجا ، فلما دنا تناول رسول الله الحربه من الحارث بن الصمه ، ثم انتفض كما ينتفض البعير فتطاير عنه أصحابه - لم يكن أحد يشبه رسول الله إذا جد الجد - ثم أخذ الحربة فطعنه بها فى عنقه وهو على فرسه فجعل يخور كما يخور الثور .

ولقد أمر باحراق مسجد الضرار ، وكانوا قد جاءوه ليصلى فيه فوعدهم بأن يأتيهم بعد غزوة تبوك ، وأنبأه الله بأمره فى آيات بينات . « لا تقم فيه أبداً » فأمر أن يحرق فأحرق .

وأحرق بيت سويلم اليهودى على من فيه ، وبعث إليهم طلحة بن عبيد الله .

* * *

ورفض أن يقبل هدية المشركين كما رفض أن يحاربوا معه وقال لا أستعين بأهل الكفر على أهل الكفر .

وعندما انتصر المسلمون فى (بدر) أزعجهم ذلك وملأ نفوسهم خوفا وهلعا ، وأجج الأحقاد فى نفوسهم وأخذ زعيمهم كعب بن الأشرف يبكى أصحاب القليب ، ويشبب بنساء المسلمين فقتله بعض المسلمين .

واشتبك بعض المسلمين مع بنى قينقاع على أثر مؤامرة دبرها اليهود لامرأة مسلمة فى السوق ، وقتل مسلم وقتل يهودى .

وقد أخذهم المسلمون بالبغتة فحاصروهم حتى نزلوا على حكم رسول الله الذى أمر بقتلهم لولا وساطة عبد الله بن أبىّ الذى طلب إلى رسول الله قبول أجلاءهم عن المدينة فخرجوا تاركين كل ما يملكون غنيمة للمسلمين .

وحدث بعد هذا أن قتل عمرو بن أمية من بنى عامر رجلين خطأ . بعد أن أجارهما رسول الله . فذهب رسول الله إلى بنى النضير وهم حلفاء بنى عامر فى محلتهم على مقربة من قباء ، فى جمع من المسلمين يطلب إليهم معاونته فى دية القتيلين .

وقد أظهروا أول الأمر الرضا والقبول ، فى الوقت الذى كانوا يعدون فيه مؤامرة لقتل الرسول ، إذ صعد أحدهم إلى البيت الذى كان الرسول مستنداً إلى جداره ، فلما رأى الرسول بوادر المؤامرة تركهم وانصرف .

وأنفذ إليهم لساعته محمد بن مسلمة . وقال له : إذهب إلى يهود بنى النضير وقل لهم : اخرجوا من بلادنا . لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم من الغدر بى وقد أحللتكم عشرا فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه .

ولكن عبد الله بن أبى حرّض اليهود على البقاء ووعدهم بأن يعاونهم بألفين من قومه ، يدخلون معهم حصونهم ويقاتلون دونهم . وأرسل حيي بن أخطب إلى رسول الله يقول :

— إننا لن نخرج من ديارنا فليصنع ما بداله » .

فلما انقضت الأيام العشرة حاصر المسلمون بنى النضير عشرين ليلة فلما لم تبد منهم بادرة التسليم أمر رسول الله بقطع نخيل اليهود وتحريقه . فلم يلبثوا أن سلموا بعد أن ضاع أملهم فى وعد عبد الله بن أبى . وانتهى أمرهم بالجلاء تاركين مغانمهم وغلاتهم .

ومضت اليهود فى خصومتها وعنادها . وذهب حيي بن أحطب ، وسلام وكنانه بن الحقيق إلى مكة يتفاهمون مع زعماء قريش فى أمر مقاومة محمد وحربه ودعاهم نفاقهم إلى أن يقولوا : إن دين قريش خير من دين محمد .

وطفقوا ينتقلون بين مكة وبنى مرة وفزاره وأشجع وسليم وقيس وغيلان ، محرضين على التجمع للأخذ بالثأر من محمد ولم تلبث أن حاصرت المدينة . . ووقعت معركة الخندق .

* * *

وفى نفس لحظات النصر نادى مؤذنه :

من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة .

وخف المسلمون وهم فى جراحهم ودمائهم لحصار بنى قريظة التى نقضت العهد مع العرب أبان غزوة الخندق .

وطال الحصار خمسا وعشرين ليلة .

فلما رأى اليهود أن العون قد نفذ . وأن الحصار لا يزال قوياً ، عرضوا على رسول الله أن يقبل منهم ما قبل من بنى قنيقاع وبنى النضير فأبى عليهم ذلك .

ثم قبلوا أن يجعلوا بينهم وبينه رجلا من حلفائهم واختاروا سعد بن معاذ . وأعطوا مواثيقهم على قبول حكم سعد . فحكم سعد بأن تقتل المقاتلة . وتقسم الأموال . وتسبى الذرية والنساء . ثم حفرت الخنادق وضربت أعناق اليهود . ودفنوا فيها واستأصلوا عن آخرهم . وقسمت الأموال والسبايا على المسلمين .

* * *

ولم يتوقف محمد فى مواجهة خصومه .

وإذا بهم على أبواب (خيبر) فى عماية الصبح فى ألف وستمائة .

ونادى النبي نداءه الخالد :

« خربت خيبر . إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين »
وبغتت اليهود لحصار المسلمين .

وأخذ المسلمون يفضون الحصون حصنا حصنا . ومضى على ابن أبى طالب إلى حصن « ناعم » فاقتحمه . ثم إلى حصن « القموص » ثم حصن « الزبير » والوطيح والسلالم . . ولما لم يجد اليهود أملا ، ذلوا وسلموا .

ووصل خصوم محمد إلى أبعد مدى فى مؤامرة « بئر معونة » والرجيع . فقد جاء قوم إلى الرسول يقولون له إن فينا إسلاماً فاشياً . فابعث معنا نفراً منّ أصحابك يقرءون القرآن ، ويفقهونا فى الدين .

فلما أرسل محمد معهم أصحابه قتلوهم !

وقد دعا رسول الله على الغادرين « اللهم اشدد وطأتك على مضر . اللهم عليك ببنى لحيان ورعب ورعل وزكوان وعصية » .

وفى إحدى الغزوات والرسول فى الطريق مكر به أناس من المنافقين وائتمروا أن يطرحوه فى إحدى العقبات ، فلما بلغ تلك العقبة أرادوا أن يسلكوها معه فأخبر خبرهم . فقال للناس : اسلكوا بطن الوادى فإنه أسهل لكم وأوسع . فسلك الناس بطن الوادى . وسلك رسول الله العقبة . وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقةويقودها .

* * *

وأمر حذيفة بن اليمان يسوق خلفه . قال أحدهما مامنعك يا رسول الله من سلوك الوادى . لقد كان أسهل . قال : أندرى ما أراد البارحة المنافقون . قالوا نتبعه فى العقبة فإذا أظلم الليل عليه قطعوا نسع راحلتى ونخسوها حتى يطرحونى من فوقها .

وقد رفض « محمد » أن يقتلهم أو ينتقم منهم واكتفى ما به كشف أمرهم .

محمد الانسان

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ »

يقف المؤرخون أمام حياة محمد ويقولون : إنما هو نبيٌّ يأتيه الوحى من السماء . ولكن فى حياة محمد جوانب خالدة من العظمة والجلال مستمدة من شخصيته الإنسانية . ولو كانت أعمال الرسول كلها من عمل الوحى وحده ، إذن ابطل عمله كعظيم وقائد .

ذلك أن الوحى لم ينصب إلا على جانب واحد فى حياة الرسول ذلك هو الجانب المتصل بشئون هذه الرسالة العليا فقد كان هذا الوحى توجيهاً لرسم القواعد الرئيسية ووضع الخطط الكبرى التى إذا ما قررت بالقرآن المنزل ترك للرسول بعد ذلك التصرف والعمل والاتصال بالناس والتفاهم معهم على طريقته الخاصة وبأسلوبه الخاص ووفق طبيعته ومقدرته وذكائه .

ومن أمثلة ذلك موقعة « بدر » هذه الموقعة الكبرى الفاصلة فى تاريخ الإسلام . ذلك أن العرض المنزل من السماء قد اقتصر على قوله تعالى « إن الله يمدكم إحدى الطائفتين » .

ثم ترك لمحمد بعد ذلك أن يعبىء أصحابه . وأن يعد عدة الحرب

بعد أن مضت المير . وأن يستشير أصحابه فى الأمر . وأن يستمع إلى رأى المهاجرين والأنصار . فيرى بعضهم أن هذا الموضع الذى نزله الرسول ليس بموضع فيسأل الرسول قائلا :

أهو منزل أنزله الله . فلما قال له الرسول : أن لا قال إن هذا ليس بموضع . وأشار بأن يكون المسلمون على الماء . وخصومهم لاماء لهم ، وأن يصنع للنبىّ عرشاً يكون فيه .

وقد كان لمدى طبيعته الإنسانية وشخصيته أبعد الأثر فى تصريف الأمور . وتوجيه دفة المعركة وإحراز النصر . وآية ذلك أن أمره لم يكن وحياً ، وأنه كان يخطىء ويصيب . وقد عاتبه الله فى إذنه للمشركين فى حرب من الحروب .

وعلى أنه عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وعلى أنه قضى فى أسرى بدر فأطلق سراحهم وقبل فديتهم .

وقد كان لمحمد من طبيعته الإنسانية ما حقق له الكثير من النصر ، وما وفق إليه من الوصول إلى قمة الظفر فقد أوتى الشمائل التى تجمع الاتباع وتدينهم له «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا

من حولك » وقد وصل فى ذلك إلى غاية القوة فجمع حوله القبائل المتنافرة والقلوب المختلفة .

* * *

وهذه الشخصية المحمدية الممتازة القوية العارضة منذ الشباب الباكر التى عرفت بالأمانة والخلق ، وهى التى — حين أتيح لها أن تلى أمر الرسالة — صرفتها بلباقة وحكمة وسداد .

وليست إذن عوامل الحكمة واللباقة والسداد طارئة عليه أوجاءته من قبيل الوحى وحده . وإنما هى طبيعته الصادقة المفطورة على تصريف أمور الناس . هذه الأخلاق التى وسمت صاحبها باسم الأمين منذ شبابه الباكر ، وجعلته موضع تقدير الناس ، حتى اختارته أغنى سيدات قريش لتجارتها ووثقت به .

هذه الطبيعة الإنسانية لمحمد قبل أن يجهر بالدعوة أو توكل إليه ، كانت كذلك غاية فى القوة فقد اشترك فى أحلاف قريش وفى حرب الفجار . وحمل السلاح منذ صغره . وكان يجمع السهام التى تقع من هوازن ويقدمها لأعمامه وكان يرمى بعضها بنفسه .

وقال بعد الرسالة : ما أحب إلىّ بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم . لو دعيت به لأجبت

ومن هذين العملين اللذين اشترك فيهما محمد الشاب تبدو لك الأصول الأولى والجذور الرئيسية واضحة لشخصية الإنسان العظيم.

فيه طبيعة المحارب القوى الذى أقدم على الحرب واشترك فيها وهو فى سن العشرين . وفيه طبيعة المصلح الوفى الذى أحب أن يكون مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه .

وقد عاش حياته كلها على هدى هذين العاملين ، كأنما هما شق حقيقة واحدة . وهى الدعوة إلى الحق ونصره من ناصرها وتأييد من دعا إليها والإنصاف للمظلوم وحرب الظالم والانتصاف منه

* * *

وفى شباب محمد قبل بعثه : حقائق أخرى ترسم صورة شخصيته مجلوة واضحة . تلك هى : رعيه للغنم ورحلتاه إلى الشام .

وقد أضافت هذه الرحلات إلى حصيلته الخبرة الوفيرة ،

فاستمع إلى الناس ورأى البلاد وتحدث إلى أهلها . ورويت له الأساطير والأقاصيص . وكان يلم بين آن وآخر بأسواق التجارة فى عكاظ وغيرها . فيلتقى بالتجار فى ميادين التفاخر والجدل والحجج .

والتجارة من أوفر ميادين الحيـاة خبرة ، اتصل فيها محمد بالعدد الـكثير من الاقوام من التجار وأصحاب الحول والطول ، فى غير مكان من الأماكن ، وفى الشام على وجه الخصوص .

وفى خلال فترة الشباب ، عاش نقياً لم يقترف مأثمة ولامنـكراً ولم يضطرب فى ميادين اللهو التى كان يرتادها الشباب أيامه ، وإن كانت نفسه قد حدثته مرة بأن يهبط مكة ويلهو بها تحت جنح الظلام . غير أنه ما كاد يبلغها حتى ضرب على أذنه النوم فنام .

وكان إلى ذلك شاباً مكتمل الرجولة والشباب . وسامة وجمالا ، بالإضافة إلى خلقه وطبيعته المعتدلة . فقد أعجبت به السيدة خديجة بنت خويلد . واصطفته على كثرة من استأجرت من الرجال لتجارتها . وكانت غنية ذات شرف ومال . وكان قد سافر لتجارتها فأعجبت به فدست إليه صاحبتها . نفيسة بنت منية .

هذه التى قالت له ما يمنعك أن تتزوج . فقال : ما بيدى

أن أتزوج به فقالت · فإذا كفيت . ودعيت إلى الجمال والمال والشرف . ألا تجيب . قال فمن هى ؟ قالت خديجة · قال : كيف لى بذلك !! ؟ قالت ذلك علىّ .

* * *

وكان محمد فى حديثه غاية فى الإيجاز البليغ ·

قال له أبو طالب :

« يا ابن أخى . أنا رجل لا مال لى · وقد اشتد الزمان علينا . وقد بلغنى أن خديجة قد استأجرت فلاناً ببكرين . فهل ترضى لك بمثل ما أعطته » وقال محمد كلمة واحدة . ما أحببت .

* * *

وقد كان فى طبيعته الإنسانية يقظة وحذر جعلاه يقف من الأصنام موقف الحيرة فهو لم يسجد لها · ولم يتصل أمره بها ، كما اتصل الأمر بأهل زمانه ، كان يتحنث فى غار حراء فى رمضان من كل عام ·

وفى هذه المرة قصد إلى مكانه ، ففاجئه جبريل بالوحى وأعلن إليه الدعوة . وكان على رأس الأربعين . .

ومن ثم أصبح نبيا مرسلا .

(٢)

عاش طوال حياته ، تلك الحياة البسيطة الخشنة ، كان كذلك فى أول أيام دعوته ، كما كان بعد أن بسط سلطانه على الجزيرة كلها .

كان سريره من سعف النخل . وفراشه من أدم . وطعامه آية فى البساطة . يرقأ ثوبه . ويكره الحرير . ويصبح أحيـانًا فلا يجد طعامًا فينتوى الصيام .

ويقول حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه .

وكان يطيل الصوم أحيانًا حتى كانت السيدة عائشة تقول : لقد كنت أبكى رحمة مما أرى . وأمسح بيدى على بطنه مما أرى من الجوع وأقول : نفسى لك الفداء . لو تبلغت من الدنيا مايقويك

فيقول لى : مالى وللدنيا . إنما أنا والدنيا كراكب مرّ بشجرة فاستظل بها ثم مضى وتركها .

وكان آية من آيات التواضع : يحلب شاته ويخصف نعله ،

وكانت حجراته مبنية من اللبن . واطئة ضيقة . بينها حواجز من جريد النخل ملبس بالطين .

وقد ظل يؤكد لأتباعه أنه إنسان . أحرجه قومه وطالبوه بالمعجزات وقالوا له لم لا تحيي الموتى . ولا تحيل الصفا ذهباً . ولماذا لاتفجر لنا من الأرض ينبوعاً .

فلم يزد على أن قال لهم : إن كنت إلا بشراً رسولا

وكان من حرصه على معنى « الإنسان » أنه كان يصلى فى الليل حتى تتورم قدماه . وأنه كان يستغفر الله كثيراً . ويقول : « إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله » .

فإذا قيل له إنه قد غفر لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر . قال : أفلا أكون عبداً شكوراً .

وحفر الخندق ، وحمل التراب . وشارك فى إعداد الطعام . وتبادل النياق فى بدر . وكان يحرس بنفسه ثلمة فى الخندق فإذا اشتد عليه البرد دخل قبته فتدفئه عائشة ثم يخرج إلى الثلمة يحرسها ويقول : والله ما أخشى على الناس إلا منها .

وكان يستغفر من تصرف يفعله أو كلمة يقولها ويقول مؤكداً:

أنا بشر أغضب وآسف كما يغضب البشر فأيما مؤمن دعوت له بدعوة فاجعلها له رحمة .

وكان يسترجع بعض الأمر بعد أن يقضيه ويقول : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ماسقت الهدى .

أقوله : «فعلت اليوم أمراً ليتنى لم أفعله . دخلت البيت (الكعبة) فعسى الرجل من أمتى لايقدر أن يدخله فتكون فى نفسه حزازة ، إنما أمرنا بالطواف ولم نؤمر بالدخول »

* * *

وكره على تأليه شخصيته فقال : لاتقوموا كما يقوم الأعاجم . وإن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته .

وكان لايقدم نفسه ولايضع شخصه فى موضع يتميز به عن أصحابه . ولما رعد منه الأعرابى زجره وقال :

إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد .
وكان يردد : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد .
ويقول : الناس كلهم بنو آدم . وآدم من تراب .

وكان يكره الخروج عن الطبيعة الإنسانية . فينهى عن الصوم الطويل والقيام الطويل . ويقول إننى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج . ويقول للمتحاكين إليه : إنما أنا بشر مثلكم وإنه يأتينى الخصم فلعل بعضكم يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك .

وكان يركب الحمار فى الأسواق ويعتقل الشاة فيحلبها ويحمل حاجته . وكان يحسن صحبة من يعرفه . ويقول ماصاحب مسلم صاحبه ساعة من نهار إلا سئل عن صحبته يوم القيامة .

* * *

وتصفه السيدة خديجه فتقول : « والله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

وكان عفوه آية الآيات فى عظمة شخصيته الانسانية :

عفا عن وحشى قاتل حمزة ، وعفا عن عبد الله بن أبىّ بن سلول ، وعفا عن فضالة بن عمير وقد أراد أن يقتله ، وعفا عن أهل مكة .

* * *

وكان وفيًّا غاية الوفاء الإنسانى ، حفظ ذكرى خديجة ، وظل يذكرها بالخير طوال حياته . وظلت حليمة السعدية طوال حياتها موضع رعايته . وكان يمد لها طرف ردائه لتجلس عليه .

ولما أحس أن أبا طالب لا يستطيع أن ينفق على أولاده . تحدث إلى العباس فقال له : إن أخاك أبى طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ماترى من هذه الأزمة . فانطلق بنا فلنخفف عن عياله ، آخذ من بيته رجلا ، وتأخذ أنت رجلا فنكفلهم . فكفل العباس جعفراً وكفل محمد عليا

وكان لايرد الناس عن الحديث معه مهما كان أمرهم ، حتى قيل إن امرأة كان فى عقلها شىء فقالت : يارسول الله إن لى إليك حاجة ، قال ياأم فلان : انظرى أى السكك شئت حتى أقضى لك حاجتك ، فخلا بها فى بعض الطرق حتى فرغت من حديثها

وكان يحرص على معرفة حاجة أصحابه ؛ ويقول ليبلغ الشاهد الغائب ، وأبلغونى حاجة من لايستطيع إبلاغى حاجته

* * *

وهو كانسان كان يحتمل نصيبه فى المعركة وفى أحد أتاه النبل

من كل مكان وانتاشته الأحجار . وكسرت رباعيته وشج فى جبينه حتى غاب حلق المغفر فى وجنتيه . ووقع فى الحفرة على جنبه فأصيبت ركبتاه . وترس أبو دجانة عنه بظهره .

وكان يقول دائما للمتحمسين للحرب من الشباب : لاتتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا .

وفى حنين واجه المسلمون نبال المشركين فى عماية الصبح . وهى تقذفهم فى قوة وعنف فكروا راجعين وحن رسول الله وهم يفرون عن يمينه وشماله . وثبت ثباتاً عجيباً . ومضى يردد فى قوة:

أنا النبىّ لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

* * *

ولطالما نزل على رأى أصحابه عندما يرى أنه خير من رأيه . حدث أن أقام المسلمون بالحديبية بضعة عشر يوماً ثم انصرفوا فلما نزلوا عسفان أرمل المسلمون من الزاد ، وسألوا رسول الله أن ينحروا إبلهم فأذن لهم فى ذلك

فقال عمر : يا رسول الله لا تفعل فإن يك فى الناس بقيـة ظهر لـكن أمثل . ولـكن ادعهم بأزوادهم ، ثم ادع لهم الله فيها فوافق الرسـول ، وأمر بالأنطاع فبسطت ثم نادى مناديه : من كان عنـده بقية زاد فلينثره على الأنطاع ، فـكان منهم من يأتى بالتمرة الواحدة أو يأتى بالـكف من الدقيق والـكف من السويق ثم مشى الرسول فدعا فيها بالبركة .

كان انسانا . يخطىء ويصيب . ولولا ذلك ما عاتبه الله فى أسرى بدر وأمر الاعمى .

١ — وأبرز شمائله الإنسانية : أنه اتسم بالزهد واكتفى بالقليل كما اتسم بالبساطة فى لقاء الأمور وفى توجيهها . إذا خيِّر بين أمرين اختار أيسرهما ما لم يكن إثما . يمزح ويتفكه . ولا يقول إلا حقا واذا تصدق وضع الصدقة فى يد السائل . وكان يركب ويردف خلفه .

٢ — عرف بتلطفه مع الأطفال والصغار . والصبر على جفوة الغريب فى منطق رسالته ، لا يواجه احداً بما يكره . ويجيب دعوة الداعى ، ويعود المريض . ويقبل العذر ويتجاوز عن المسىء . ويعطى من منعه ، ويصل من قطعه . ويبذل لمن حرمه . ويغضى طرفه عن الأذى وكان أجود من الريح المرسلة .

٣ — إذا أقبل جلس حيث ينتهى به المجلس . ويعد طرف

ردائه لضيفه ويحلب شاته ويخصف نعله ويحب التيمّن فى كل شىء، فى طهوره وتنقله وترجله .

٤ — يذكر الله فى كل حال . إذا استيقظ وإذا نام وإذا مشى وإذا خرج من مسجده وإذا دخل المسجد . وإذا لبس أو خلع لباسه . لقى الناس بحسن القبول والاقناع .

وقد صور القرآن إنسانيته فى قوله « قل : لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلّا نذير »

مع اهله

« خيركم خيركم لأهله »

حديث شريف

كان في بيته مثلا للرجل الكريم . تزوج من خديجة وعاش معها حتى ماتت دون أن يتزوج غيرها .

وكان قد سافر فى تجارة لها فلما عاد رابحاً سمعت من خادمها مسرور عن خُلقه فأرسلت صاحبتها تدعوه إلى زواجها ، فزوجه إياها عمها عمرو بن أسد بن عبدالعزى وقال هذا الفحل لا يقرع أنفه (أى كف كريم لا يرد)

ووجد فى زوجه (خديجة) الحب والوفاء خلال حياة امتدت خمسة عشر عاما ، رزق منها القاسم وعبد الله ورقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة .

ولقد وقفت منه عندما جاءته الرسالة أكرم موقف .

« أبشر يابن عم واثبت . فو الذى نفس خديجة بيده ، إنى لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة . والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ».

وقد كانت خديجة عوناً للرسول خلال أعوام الاضطهاد الأولى حيث أقامت معه فى شعاب بنى عامر ثلاث سنين .

وعندما ماتت خديجة تركت فى نفس « محمد » أعمق عواطف الود التى لم تذهب . ويوم قدمت ابنته قلادة أمها خديجة فداء لزوجها نظر إليها فى حنان وقال إذا استطعتم أن تطلقوا أسيرها وتردوا لها قلادتها فافعلوا .

قالت عائشة : إن النبى كان لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة وأقبلت هاله أخت خديجة لزيارة المدينة . وسمع النبى صوتها فى فناء بيته وكان يشبه صوت الراحلة . فهتف يقول :

« اللهم هاله »

قيل فما ملكت « عائشة » أن قالت : ما تذكرين من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين ، هلكت فى الدهر ، أبدلك الله خيرا منها ، آمنت بى حين كفر الناس وصدقتنى إذ كذبنى الناس وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس . ورزقنى الله عنى خير الجزاء . اللهم كافىء خديجة بنت خويلد »

قالت عائشة : « والله لا أذكرها بعدها أبداً » .

وكان إذا ذبح الشاة يقول : أرسلوا إلى أصدقاء خديجة فحدثته عائشة فى ذلك : فقال : إنى لأحب حبيبها .

* * *

وقالت عائشة له مرة : كأن لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة !

فرد عليها صلى الله عليه وسلم « إنها كانت وكانت وكان لى منها ولد » وحتى يوم الفتح . . وقد مضى على وفاة خديجة أكثر من عشر سنوات كان النبي يختار مكاناً إلى جوار القبر الذى أودع فيه زوجته الأولى .

* * *

وتزوج عائشة وكان فضلها على كل نسائه اللاتى تعددن بعد إقامة الدولة فى المدينة لأسباب سياسية وتشريعية .

وتقف عائشة يوم عرسها فتقول « جاء رسول الله بيتنا فاجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء . فجاءتنى أمى وأنا فى أرجوحة بين عرقين فأنزلتنى . ثم سوت شعرى ومسحت وجهى

بشيء من ماء ، ثم أقبلت تقودني حتى إذا كنت عند الباب وقفت بي حتى ذهب بعض نفسي . ثم أدخلتني ورسول الله جالس على سرير في بيتنا فأجلستني في حجره وقالت :

— هؤلاء أهلك فبارك الله لهن فيهن وبارك لهن فيك ووثب القوم والنساء فخرجوا . وبنى بي رسول الله في بيتي . ما نحرت جذور ولا ذبحت عليّ شاة ، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها إلى رسول الله »

* * *

وكان يردد دائما كلمته « اللهم هذا قسمتي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك »

ووقع لعائشه أن اشترت نمرقة فيها تصاوير فلما رآها رسول الله قام على الباب . فلم يدخل فعرفت في وجهه الكراهية فقالت : يا رسول الله أتوب إلى الله وإلى رسوله فماذا أغضبك قال فما بال هذه النمرقة ؟ قالت اشتريتها لك تقعد عليها وتوسدها فطلب إليها إلا تدعها في البيت

* * *

وكان نساءه يراجعنه حتى يظل يومه غضبان

ولقد بلغ من أمر غيرة عائشة عليه أن حمل إليها إبنه إبراهيم من مارية القبطية وقال لها انظرى إليه : إنه يشبهنى فما لبثت إن قالت : ما أرى شيئا مما يقول .

وقد تآمرن عليه . فاضطر إلى اعتزالهن شهرا لا يجلس إليهن ولا يكلم أحداً فى شأنهن وكان يقضى أوقاته فى خزانة له ذات مشربة لا يصعد الصاعد منها إلا على جذع نخلة خشنة الدرج فلما انقضت فترة الشهر . بدأ بعائشة وظن أنها ستلقاه بالاعتذار أو التكريم ولكنها مالبثت أن قالت له : يارسول الله . أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً ودخلت وقد مضى تسع وعشرون يوما .

فأجاب صلى الله عليه وسلم فى بساطة : إن الشهر تسعة وعشرون يوما

* * *

وكان يقول لها إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية . وإذا كنت علىّ غضبى . قالت : من أين تعرف ذلك ؟ قال : إذا ما كنت عنى راضية تقولين ورب محمد ، وإذا كنت على غضبى قلت ورب إبراهيم

ولكنه كان صلى الله عليه وسلم رفيقا بهن ، حانياً عليهن ، يتفقدهن بعد صلاة العصر ويمر على منازلهن جميعا .

اختلف مع عائشة مرة ، وطلب إليها أن تحكم من تشاء . فقال من ترضين أن يكون بيني وبينك . أترضين بأبى عبيدة بن الجراح قالت لا . ذلك رجل هين لين يقضي لك . قال أترضين بأبيك قالت : نعم .

فلما جاء أبو بكر . قال رسول الله : اقصصي

قالت : بل اقصص أنت

فقال : هي كذا وكذا .

قالت : أقصد

فرفع أبو بكر يده فلطمها وقال تقولين يابنت أم رومان أقصد من يقصد إذا لم يقصد رسول الله . فجعل الدم يسيل من أنفي ورسول الله يحجز بيننا

ويقول لصديقه : إنا لم نرد منك هذا . وجعل يغسل الدم من ثيابها فلما انصرف اتجه إلى عائشة مبتسما وقال لها .

رأيت كيف أنقذتك من الرجل .

وكان غاية فى بساطة الطبيعة الإنسانية مع أهله . لا يحجزه عنها ولا يحول دونها انه نبيٌ مرسل . تقول عائشة :

كان السودان يلعبون فى يوم من أيام العيد بالدروق والحراب فقال : إذا كنت أشتهى أن أنظر . قلت نعم . قال : فأقامنى وراءه خدى على خده . وهو يقول : دونكم نبيّ أرفدة حتى إذا مللت . قال حسبك قلت نعم . قال فاذهبى .

* * *

وكان يبلغ به الطابع الإنسانى غايته فى البساطة واليسر أن يداعب نسائه ويسابقهن .

تقول عائشة : خرجت مع النبي فى بعض أسفاره وأنا جارية لم أكن أحمل اللحم فقال النبي للناس . تقدموا تقدموا . ثم قال لى : تعالى أسابقك . فسابقته فسبقته . فسكت حتى إذا حملت اللحم . وكنا فى سفرة أخرى . قال للناس : تقدموا ثم قال : تعالى حتى أسابقك فسابقته فسبقنى

فجعل الرسول يضحك ويقول . هذه بتلك

* * *

ولما نزلت الآية الكريمة « ياأيها النبيُّ قل لأزواجك إن كنتنّ تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما » .

قال لعائشة : إنى أريد أن أعرض عليك أمراً أُحب ألا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك

قالت : وما هو يارسول الله . فتلا عليها الآية .

قالت : أفيك يارسول الله أستشير أبوى . بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة

* * *

وداع | فى خلال اعتزاله لزوجاته أنه طلقهن . فدخل عمر على ابنته وهى تبكى وقال : لعل رسول الله قد طلقك . إنه كان قد طلقك مرة ثم راجعك من أجلى فإن كان طلقك مرة أخرى فلا أكلمك أبدا .

وخرج عمر إلى المسجد وقصد إلى الخزانة التى كان يقيم بها الرسول ونادى بأعلى صوته .

يارباح استأذن لى عندك على رسول الله فإنى أظنه ظن أنى جئت من أجل حفصة . والله لئن أمرنى بضرب عنقها لأضربن عنقها .

وأذن له النبى فدخل وهو يبكى :

قال النبى : ما يبكيك يا ابن الخطاب .

فقال عمر : يا رسـول . ما يشق عليك من أمر النساء . إن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل . وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك .

فابتسم الرسول ؛ وقال له إنما هجرتهن شهراً .

فنزل عمر فبشر الناس وقال : إن الرسول لم يطلق نساءه .

***

ورفع قدر النساء . قال عمر : والله إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل . وقسم لهن ما قسم . فبينا أنا فى أمر أأتمر إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا . فقلت لها : ومالك أنت وطاها هنا . وما تكلفك فى أمر أريده . فقالت لى عجباً يا ابن الخطاب ما تريد أن تراجع أنت . وإن ابنتك لتراجع رسول الله حتى يظل يومه غضبان . .

* * *

وكان يحب بناته ويقول لفاطمة بنت محمد . سليني ما شئت من مالى . لا أغنى عنك من الله شيئا .

كما كان يحب أبناء فاطمة : الحسن والحسين :

وروى أن النبي صلى فأطال السجود . فلما قضيت الصلاة قيل له : يا رسول الله . إنك سجدت سجدة أطلتها حتى ظننا أن قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك . فقال :

كل ذلك لم يكن . ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته .

* * *

وعند ما زوج علياً لابنته فاطمة وجاءت ليلة الزفاف دعا الرسول أم سلمة فطلب إليها أن تمضى بالعروس إلى بيت على وتنتظراه هناك .

وصلى العشاء ثم مشى إلى دار « على » حيث دعا بماء فقرأ عليه بعض آى الذكر الحكيم . ثم أمر العروسين أن يشربانه وتوضأ بالباقى ونثره على رأسيهما .

* * *

وعندما جاء العاص بن الربيع خاطباً لابنته زينب : قام يسعى حتى دنا من غرفتها فوقف قريباً منها بحيث تسمع ولا تراه .

وقال : بنيتى زينب . إن ابن خالتك أبا العاص بن الربيع ذكر اسمك .

***

وعندما عاد العاص بن الربيع من رحلته إلى المدينة واعتقله المسلمون ذهبت « زينب » إلى باب المسجد ثم صاحت بملء صوتها « أيها الناس : إنى أجرت أبا العاص بن الربيع » فلما سلم من صلاته . قال : أيها الناس هل سمعتم ما سمعت . قالوا : نعم . قال : أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم . وإنه ليجير على المسلمين أدناهم . وقد أجرنا من أجارت » .

ثم انصرف فدخل على ابنته وعندها ابن خالتها وزوجها فانتحى بها ناحية وقال :

أى بنية . اكرمى مثواه ولا يخلصن إليك فأنك لا تحلين له .

***

(٢)

وفى حادث الإفك تعرض لمحنة إنسانيـــة تتعلق بشرفه الإنسانى وكرامته النبوية[١]. وقد واجهها فى إيمان وهدوء وسمو نفس وقد ردت السيدة عائشة نفسها حالات الإفك فقالت :

كان رسول الله إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه . فأيهن خرج سهمها خرج بها معه . فلما كانت غزوة بنى المصطلق أقرع بين نسائه كما كان يصنع . فخرج سهمى عليهن معه . فخرج بى رسول الله وكنت إذا رحل لى بعيرى ، جلست على هودجى ، ثم يأتى القوم الذين يرحلون بى ويحملوننى فيأخذون بأسفل الهودج ، فيرفعونه ، فيضعونه على ظهر البعير . فيشدونه بحباله ثم يأخذون برأس البعير . فينطلقون به . فلما فرغ رسول الله من سفره ذلك . وجه قافلا . حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلا . فبات به بعض الليل . ثم أذن فى الناس بالرحيل ، فارتحل النـاس . وخرجت لبعض حاجتى، وفى عنقى عقد لى فيه جزع ظفار (خرز)

---

(١) سيرة ابن هشام .

فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى . فلما رجعت إلى الرحل ، ذهبت التمسه فى عنقى . فلم أجده . وقد أخذ الناس فى الرحيل ، فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه ، فالتمسته حتى وجدته وجاء القوم خلافى ، الذين كانوا يرحلون لى البعير . وقد فرغوا من رحلته فاخذوا الهودج ، وهم يظنون إنى فيه ، كما كنت أصنع . فاحتملوه فشدوه على البعير . ولم يشكوا أنى فيه ، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به فرجعت إلى المعسكر وما فيه من داع ولا مجيب . قد انطلق الناس .

فتلففت بجلبابى . ثم اضطجعت فى مكان . وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلى . فوالله إنى لمضطجعة إذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته . فلم يبت مع الناس فرأى سوادى . فأقبل حتى وقف علىّ — وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب ـــ فلما رآنى قال . إنا لله وإنا إليه راجعون . ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وأنا متلففة فى ثيابى . قال : ماخلفك يرحمك الله ! قالت . فما كلمته ، ثم قرب البعير . فقال اركبى واستأخر عنى . قالت : فركبت وأخذ برأس

البعير . فانطلق سريعاً يطلب الرحل فوالله ما أدركنا الناس • ومافتقدت حتى أصبحت •

ونزل الناس فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بى . فقال أهل الإفك ماقالوا . فاضطرب العسكر . ووالله ماأعلم بشيء من ذلك !

ثم قدمنا المدينة ، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة ، ولايبلغنى من ذلك شيء . وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ، وإلى أبوى . لايذكرون لى منه قليلا ولا كثيراً ، إلا أنى قد أنكرت من رسول الله بعض لطفه بى . حتى إذا اشتكيت رحمنى ، ولطف بى . فلم يفعل بى فى شكواى تلك ، فأنكرت ذلك منه .

كان إذا دخل علىّ وعندى أمى تمرضنى . قال : كيف تيكم ! لايزيد على ذلك حتى وجدت فى نفسى .

فقلت : يارسول الله ، حين رأيت مارأيت من جفائه لى لو أذنت لى . فانتقلت إلى أمي . فمرضتني !

قال : لاعليك

فانتقلت إلى أمى ، ولا علم لى بشىء مما كان . حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة ، وكنا قوما عربا ، لا نتخذ فى بيوتنا هذه الكنف التى تتخذها الأعاجم ، نعافها ونكرهها . إنما كنا نذهب فى فسح المدينة ، وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهن ، فخرجت ليلة لبعض حاجتى ، ومعى أم مسطح بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد منـاف . وكانت أمها خالة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فوالله انها لتمشى معى إذ عثرت فى مرطها فقالت : تعس مسطح . فقلت : بئس لعمر الله ماقلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدراً .

قالت : أو ما بلغك الخبر يابنت أبى بكر

قلت : وما الخبر

فأخبرتنى بالذى كان من قول أهل الإفك قالت قلت : أو قد كان هذا

قالت : فوالله ماقدرت على أن أقضى حاجتى . ورجعت .

فوالله مازلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى . وقلت لأمى . يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به . ولا تذكرين لى منه شيئاً .

قالت : أى بنية . خفضى عليك الشأن . فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها . لها ضرائر ، إلا أكثرن وكثر الناس عليها . قالت وقد قام رسول الله فى الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال . أيها الناس ؟ مابال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق ، والله ماعلمت منهم إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل والله ماعلمت منه إلا خيراً ، وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى .

وكان قبل ذلك عند عبد الله ن أبىّ بن سلول ، فى رجال من الخزرج مع الذى قال مسطح وحمنة بنت جحش وذلك أن أختها زينب بنت جحش وذلك كانت عند رسول الله ، ولم تكن من نسائه امرأة تساوينى فى المنزلة عنده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله بدينها ، فلم تقل إلا خيراً . أما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت.

فلما قال محمد تلك المقالة ، قال أسيد بن خضير ، يارسول الله أن يكونوا من الأوس نكفيكهم ، وإن يكونوا إخواننا من الخزرج فمر بأمرك .

ودعا محمد على ابن أبى طالب ، وأسامة بن زيد فاستشارهما فأما أسامة فأثنى عليه خيراً ودعا له . ثم قال . يارسول الله أهلك ولا تعلم منهم إلا خيراً ، وهذا الكذب والباطل . فأما على فإنه قال يارسول الله، إن النساء لكثير وأنك لقادر على أن تستخلف وسل الجارية فأنها ستصدقك

فدعا رسول الله (بريره) الجارية فقام إليها على بن أبى طالب فضربها ضربا شديداً وهو يقول : أصدق رسول الله .

قالت . فتقول . والله ماأعلم إلا خيراً ، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً إلا أنى كنت أعجن عجينى وآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكله .

ثم دخل علىّ رسول الله وعندى أبواى ، وعندى امرأة من الأنصار ، وأنا أبكى وهى تبكى معى . فجلس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال ياعائشة ، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقى الله وإن كنت قد قارفت فاسواءاً مما يقول الناس فتوبى إلى الله . فإن فإن الله يقبل التوبة عن عباده .

فوالله ما هو إلا أن قال لى ذلك حتى ارتفع دمعى حتى ما أحس منه شيئاً . وانتظرت أبوى أن يجيبا عنى رسول الله فلم يتكلما .

قالت : وأيم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى ، وأصغر شأنا من أن ينزل الله فىّ قرآنا يقرأ فى المساجد ويصلى به . ولكنى قد كنت أرجو أن يرى رسول الله فى نومه شيئاً يكذب به الله عنى ، لما يعلم من براءتى أو يخبر خبراً .

قالت : فلما لم أر أبوى يتكلمان . قلت لهما : ألا تجيبان رسول الله فقالا : والله ماندرى بماذا نجيبه .

قالت : والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم مادخل على أبى بكر فى تلك الأيام . فلما أن استعجما على . استعبرت فبكيت . ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً . والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس ، والله يعلم أنى منه بريئة لأقولن مالم يكن ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى .

ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره . فقلت : ولكنى سأقول كما قال أبو يوسف « فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون » .

فوالله ما برح رسول الله مجلسه حتى تغشاه من الله ما تغشاه .

فسجى بثوبه . ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه . فأما أنا حين رأيت منه ذلك ، فوالله ما فزعت ولا باليت . قد عرفت أنى بريئة . وأن الله عز وجل غير ظالمى . أما أبواى . فوالذى نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس ثم سرى عن رسول الله فجلس وإنه لينحدر منه مثل الجمان فى يوم شات فجعل يمسح العرق عن جبينه . ويقول :

أبشرى ياعائشة . فقد أنزل الله براءتك .

قالت قلت بحمد الله .

ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله من القرآن فى ذلك ، ثم أمر بمسطح بن أثاثه . وحسان بن ثابت . وحمنة بنت جحش وكانوا أول من أفصح بالفاحشة فضربوا وحدهم .

قوة الكلمة

قال صلى الله عليه وسلم : «أوتيت جوامع الكلم
واختصرت لى الحكمة اختصاراً . وقالت عائشة : كان
النبي يتكلم بكلام بين فصل لو عده العاد لأحصاه .

عن عائشة رضى الله عنها

كان محمد غاية فى البلاغة وحسن الحديث واللباقة فى الإقناع ، وكانت عائشة تصف حديثه فتقول « إنه كان يسرد كسردكم هذا . ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من يجلس إليه ولو عدّه العاد لأحصاه » .

وكان هذا أبرز معلم فى طبيعته الإنسانية . من أكبر أسباب نجاحه فى دعوته والتفاف الناس حوله .

وكان حديثه عجبا فى الإقناع والترويح عن النفس حين تضيق بأمر من أمورها لما جاءه أصحابه وقد ضاقوا بأنهم فاتتهم الصلاة . قال لهم : إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها عليكم حين شاء .

* * *

وعندما أعلن دعوته استهلها استهلالا غاية فى اللباقة والكياسة والقدرة على مواجهة الأمور . وقف على الصفا . وكان أعلى مكان فى مكة ونادى رجال القبائل . فهرعوا إليه وقالوا : إن محمداً على الصفا ينادى .

فلما اجتمعوا له قال لهم : أرأتيكم لو حدثتكم بأن خيلا بسفح هذا الوادى تجرى ، أكنتم مصدقى ؟

قالوا نعم . أنت عندنا غير متهم .

قال : فأنا رسول الله إليكم بين يدى عذاب شديد .

* * *

وآية هذا الإعجاب ما كان يفعله أبو سفيان وأبو جهل والأخنس ، كان كل منهم يذهب إلى حيث يصلى محمداً ويقرأ القرآن فيجلس ليستمع إليه فإذا انتهى انصرف كل منهم فإذا بهم يلتقون وجهاً لوجه ، فيتلاحون ويتواعدون على ألا يعودوا .

فإذا الليل يجمعهم مرة أخرى .

* * *

لما أسلم نعيم بن مسعود وكان المسلمون محاصرون فى الخندق وكان يهوديا قال له كلمة واحدة ماأبلغها : خذل عنا ما استطعت .

ولما جاء سهيل بن عمرو ليفاوضه قال : سهل أمرهم .

ولما سبقت ناقته العضباء لأول مرة . شق ذلك على المسلمين

وقالوا كيف يسبق هذا الأعرابى ناقة رسول الله . فقال لهم النبي : إنه حق على الله ألا يرتفع فى الدنيا شىء إلا وضعه .

وكان أبو سفيان ينتظر الإذن بالدخول على النبي عندما تأخر به الإذن : فلما دخل قال : يا رسول الله . قد أذنت الناس قبلى حتى ظننت أن حجارة الجندرمة ليؤذن لها قبلى .

فأراد أن يرضيه فقال : أما والله إنك والناس كما يقول الأول : كل الصيد فى جوف الفرا .

فابتسم أبو سفيان وسرى عنه . وذهب غضبه .

وعند ما جاء زيد بن أرقم ، وكان صغير السن يروى ما قاله عبد الله بن أبىّ بن سلول : سمن كلبك يأكلك . أما والله لو عدنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل .

قال له النبي : يا غلام لعلك غضبت عليه قال : كلا والله .

قال : لعله أخطأ سمعك : قال : لا نبي الله .

قال : لعله شبه عليك . قال : لا والله .

* * *

وكان إذا عاد من موقعة كبر على كل شرف وقال :

تائبون . آيبون . إن شاء الله حامدون . لربنا عابدون . أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد .

وإذا خرج إلى السفر قال : اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الدين .

وكان إذا رأى المطر قال : اللهم صيبا نافعا . وإذا خاف ضره قال : اللهم حوالينا ولا علينا . اللهم على الأكام والآجام والظراب والأودية ، ومنابت الشجر .

وإذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وإذا رأى الهلال قال : الله أكبر . اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والسلام .

وكان إذا رأى ما يحب قال : الحمد لله الذى تتم بنعمته الصالحات . وإذا وقع له مالا يختاره قال : قدر الله وماشاء فعل .

* * *

وكان يرتجز فى بناء المسجد

اللهم إن العيش عيش الآخرة   فاغفر للأنصار والمهاجرة

وإذا حفر الخندق ارتجز

اللهم لولا أنت ما اهتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا   وثبت الأقدام إن لاقينا

* * *

ومن كلامه البليغ قوله : لا يكن أحدكم أمّعة يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم .

ويصف الدنيا فيقول :

« إن الدنيا خضرة حلوة وأن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون . إلا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه . إلا أنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته .

***

ويقول : لا يمل الله حتى تملوا . وأحب العمل إلى الله مادام عليه صاحبه ويقول « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وقال « لا يقضين أحدكم بين اثنين وهو غضبان » . .

وقال « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ويجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا » .

وقال : « إذا كان ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر » .

وقال : « حفت النار بالشهوات . وحفت الجنة بالمكاره » .

وقال : « يسلم الصغير على الكبير . والمار على القاعد . والقليل على الكثير » .

وقال : « ليس الشديد بالصرعة . إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » .

* * *

ويقول : « إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله الا أجرت عليها حتى ما تجعل فى فم زوجتك » .

وقيل يا رسول الله : أى الصدقة أعظم ؟ . قال : أن تتصدق وأنت صحيح شحيح . تخشى الفقر وتأمل الغنى .

* * *

وصور رسول الله قوة الكلمة فى قوله :

« إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات . وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم » .

* * *

ومن قوله : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان لابد . فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى . وأمتنى ما كان الموت خيراً لى .

* * *

وكان يمزح ولا يقول إلا حقاً .

جاءته يوماً عجوز فقالت : يا رسول الله ادع الله أن يدخلنى الجنة [illegible] لها : إن الجنة لايدخلها عجوز . فانصرفت المرأة حزينة ،

فقال الرسول لأصحابه ردوها على فلما جاءت . قال : إن الجنة لا يدخلها عجوز . أما قرأت قول الله تعالى : إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكاراً ، عربا أترابا » فانطلقت أسارير المرأة .

* * *

ولما وفد النابغة الجعدى وأنشده قصيدته الرائية وانتهى إلى قوله :

لا خير فى حلم إذا لم تكن له
بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

قال النبي : لا يفضض الله فاك : فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنقص له ثنية .

* * *

ويقول : إن الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعا . إنما يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم . فضلوا وأضلوا

* * *

ومن آيات بلاغته أنه خطب فى المسجد فقال :

إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة . وبين ما عنده . فاختار ما عند الله . يريد نفسه ففهم أبو بكر ما يعنى فانشج بالبكاء وهو يقول : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا وقال النبي : على رسلك ياأبا بكر

* * *

ومن أقواله التى يكشف إيجازها عن عظمة بلاغتها :

— من سره أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه .

— إن لربك عليك حقا . ولنفسك عليك حقاً . ولأهلك عليك حقا ، فاعط كل ذي حق حقه .

— اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب .

— رحم الله رجلا سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى .

— ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة . رجل أعطى بى ثم غدر ،

ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره .

— من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته . ومن فرّج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .

— أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم أى الشديد فيه .

— حق الطريق : كف الأذى . وغض البصر، ورد السلام، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر .

— إن الله كتب الإحسان على كل شىء . فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فاحسنوا الذبحة ، وليحدّ أحدكم شفرته (السكين) وليرح ذبيحته .

— آفة العلم الخيلاء

— إن الروح الأمين نفث[1] فى روعى أن نفساً لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبطأ عنها . فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب . ولا يحملنكم استبطاء شىء من الرزق أن تطلبوه بمعصية الله .

— يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء .

---

(١) يريد أن جبريل نزل عليه بالوحى .

— من فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر.

— استفت قلبك ولو أفتوك وأفتوك.

— دع ما يريبك إلى ما لا يريبك.

— أحبكم إلىّ محاسنكم أخلاقاً. الموطئون أكنافاً. الذين يألَفُونَ ويُؤْلَفُون.

— من حلم ساد ومن تفهم ازداد.

— الصدقة تقع فى يد الرحمن قبل أن تقع فى يد السائل.

— قد تركتكم على الحنفيه البيضاء ليلها كنهارها.

— ما ضلّ قدم بعد هدى إلا أوتوا الجدل.

— بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم.

— من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرضه.

— أسرع الدعاء، دعاء غائب لغائب.

— رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة.

— اعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

— يسروا ولا تعسروا . وبشروا ولا تنفروا .

— اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب .

— الكبر بطر الحق وغمط الناس .

— الحياء لا يأتى إلا بخير .

— الكلمة الطيبة صدقة .

* * *

ومن أدعيته صلى الله عليه وسلم قوله :

— اللهم إنى أسألك من النعمة تمامها ، ومن العصمة دوامها ومن الرحمة شمولها ، ومن العافية حصولها ، ومن الإحسان أتمه ، ومن الأنعام أعمه ، ومن الفضل أعذبه ، ومن اللطف أنفعه ، اللهم كن لنا ولا تكن علينا ، اللهم اختم بالسعادة آجالنا .

— اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت . فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم .

اللهم لا مانع لما أعطيت · ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد

— سجد لك سوادى ، وآمن بك فؤادى ، وهذه يدى وما جنيت بها على نفسى ، فيا عظيم هل يغفر الذنب العظيم إلا الرب العظيم ، اللهم هب لى قلبا نقيا من الشرك ، لا كافراً ولا شقياً ، أعوذ بنور وجهك الذى أضاءت له السموات السبع والأرضون السبع · من فجأة نقمتك وتحول عافيتك . ومن شر كتاب قد سبق وأعوذ برضاك من سخطك · وبعفوك من عقوبتك وبك منك · لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك

— اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت وبك خاصمت . اللهم إنى أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت · اللهم إنى أسلمت نفسى إليك . ووجهت وجهى إليك . وفوضت أمرى إليك · وألجأت ظهرى إليك · رغبة ورهبة إليك · لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك · آمنت بكتابك الذى أنزلت . ونبيك الذى أرسلت .

وفى هذه النماذج صورة لقوة الكلمة عند الرسول وقد وصف نفسه بقوله : أعطيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه . وقالت السيدة عائشة : ما كان رسول الله يسرد كسردكم هذا ولكنه كان يتكلم بكلام بيّن فصل ، لو عدّه العاد لأحصاه ويحفظه من يجلس إليه .

مواقف خالدة

(١)

الاضطهاد والصبر : هما سمة المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية وأبرز صورها . الاضطهاد من جانب خصوم الدعوة . والصبر من جانب معتنق الدعوة .

الاضطهاد من جانب العدوّ القوى المدل بقوته . المعتز بسلطانه ، الحاقد الحاسد ، الخائف المتربص . والصبر من محمد وأصحابه الذين يخافون أن يتخطفهم الناس : الضعفاء من جانب القوة المادية والسلطان . والأقوياء من جانب الإيمان بالله والثقة بنصره . والاعتزاز بدعوته .

وفى أول المرحلة وبعد أن نزل الوحى على محمد فى غار حراء ، وقفل راجعاً بالآيات التى ألقاها إليه الملك . يلقى ورقة بن نوفل فيقول له هذا الكلام الجديد العجيب :

« والذى نفسى بيده . إنك لنبى هذه الأمة . ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى . ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن » .

فيقول له الرسول : أو مخرجى هم .

— نعم ما جاء نبى بمثل ما جئت به إلا أوذى وأخرج . ولئن أدركنى يومك لأنصرنك نصراً مؤزراً .

ثم أدنى رأسه منه وقبل يا فوحه .

وهكذا استقبل الرسول أول مراحل حياته الجديدة بانتظار التكذيب والأذى وترقب الإخراج والمقاتلة .

* * *

ثم يفتر الوحى ، ويترقبه الرسول فى لهفة وشوق . فإذا به يتنزل بالجدّ الواضح الصريح « يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » .

ذلك هو التوجيه للداعية ، يرسم صورة المسئولية العظمى .

ويسر الرسول بالدعوة . ويأخذ نفر قليل من المسلمين فى الانتظام فى معسكره ، يستخفون من قريش ، ويصلون فى الشعاب ، وقريش تهزأ بهم وتظن أن شأن محمد لا يعدو أن

يكون حديثاً كحديث الرهبان أمثال قس وورقة . وإن امرءاً هذا شأنه لن يطول أمده .

وبعد ثلاث حجج . ينزل الوحى مؤذناً بإعلان الدعوة وإذاعتها فى العشيرة والأقربين « وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » فدعا أهله إلى طعام حدثهم بعده عن دعوته فانصرفوا ساخرين .

ثم أعلن دعوته فى أهل مكة جميعاً . فصعد الصفا ونادى :

« يا بنى عبد المطلب . يابنى عبد مناف . يا بنى زهرة . يابنى تيم . يا بنى مخزوم . يا بنى أسد » .

فتنادى إليه أهل مكة يقول بعضهم لبعض :

هذا محمد على الصفا ينادى .

فلما اجتمعوا إليه قال :

— أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الوادى تجرى . أكنتم مصدّقىّ !

— نعم أنت عندنا غير متهم .

— فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين . وإنى لا أملك لكم من الله شيئا إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله .

فقال أبو لهب فى حدة وغلظة :

ألهذا جمعتنا تبت يداك . فأجاب الله فى قرآنه : « تبت يدا أبى لهب وتب » الآية .

* * *

وبدأ الصراع . وأخذ أهل مكة يطالبون الرسول بالمعجزات. يطالبونه بأن يحيل الصفا والمروة ذهبا . ويحيى الموتى . ويسير الجبال ويفجِّر الينابيع . وذكر الرسول أصنام المشركين فعابها وسخر منها .

ومن ثم بدأ الصراع يشتد . وأخذت مجامع الندوة وحلق الكعبة تجد حديثها كله فى محمد ودعوته . حديث الخصيم المتفزع بعد أن كان حديث الساخر المستخف .

وانتهى هذا اللغط الطويل إلى أن سعى جماعة منهم إلى عمه

أبى طالب وعلى رأسهم أبو سفيان . وذكروا له كيف عاب ابن أخيه آلهتهم ، وسفه دينهم . وطلبوا إليه فى غضب إما أن يكفه عنهم . وإما أن يخلى بينهم وبينه « ولما لم يجبهم إلى شىء عادوا إليه مرة فمرة ، وطالبوه فى حدة . قالوا له : إما أن تكفه وإما أن ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين » .

ورأى أبو طالب أن الأمر قد انتقل إلى مرحلة جد خطيرة ، فأرسل إلى النبى وأخبره بأمر القوم وقال له فيما قال : « فابق على نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق » .

ولكن رسول الله الواثق بربه . الذى لا تزعجه هذه التوافه ولا تحول مجرى التيار فى نظره ، مهما كان أمر المسلمين وأمره من الضعف والعجز عن مقاومة قريش المتعسفة الظالمة .

ولكن الرسول لم يكن الأمر عنده فى حاجة إلى تفكير طويل أو مراجعة فانما هو سائر فى طريقه الذى رسمه له الحق . وما هذا الأمر الذى يحدثه عنه عمه الا بارقة من بوارق نضال طويل وصراع ضخم . لذلك لم يلبث أن التفت إلى عمه وقال له :

ياعمى . والله لو وضعوا الشمس فى يمينى . والقمر فى يسارى على

أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه

وأذهل أبو طالب هذا الجواب . ومع ذلك فما وسعه الا أن يقول : « اذهب يا بنيّ فقل ما أحببت . فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبداً »

* * *

ومضت قريش تصب صنوف الأذى على الرسول . وعلى المسلمين فى جرأة وقسوة ، فألقى بلال على بطحاء مكة المحرقة ووضع الحجر فوق صدره وعذبت جارية عمر وجوارى أخرى .

وافتتن آل ياسر بالأذى حتى قال لهم الرسول « صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة . لا أملك لكم من الله شيئاً »

وألقى النجس والشوك أمام بيت الرسول . وألقى على رأسه التراب كما ألقى على عنقه ، وهو ساجد — رمم الشاة المذبوحة

واتصل ذلك الاضطهاد بحياة اتباعه جميعاً فلقى كثير منهم أشد ألوان العنت والإيذاء . ولكن الرسول وأصحابه استقبلوا ذلك كله بنفوس صابرة محتسبة . وكان للمسلمين فى ذلك الاضطهاد برسول

الله أسوة . فقد كان أشدهم تعرضا لأذى المسلمين وأعظمهم احتمالا له . فاحتملوا وصبروا وهانت عليهم أنفسهم ، وودوا لو افتدوا الرسول أو منعوه .

ودهشت قريش لهذا الصبر وهذا العزم المصمم ، وهما الحب القوى للرسول. حتى يقول أبو سفيان معجبا مهبوراً: « ما رأيت من الناس أحد يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمداً »

ويأتى حبيب إلى الرسول فيقول له : اشتد بنا الضر . فيقول الرسول : ويحكم ماذا لقيتم . لقد كان يؤتى بالرجل ممن كان قبلكم فيوضع المنشارعلى مفرق رأسه ما يصرفه ذلك عن دينه »

واضطرد النضال قويا عنيفا بين المسلمين وقريش . فلما طال الأمر ، وقد ظنوا أنه لن يطول ، لجأوا إلى الحيلة والدهاء فبعثوا إلى رسول الله عتبة بن ربيعة. فلما كلمه قال له .« يا ابن أخى : انك منا حيث قد علمت من المكان فى النسب . وقد اتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعاتهم فاسمع منى أعرض عليك أموراً ! إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد تشريفا سودناك علينا فلا نقطع

أمراً دونك . وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا . وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب ويذلنا لك فيه أموالنا حتى تبرأ — » .

فلما انتهى تلا عليه رسول الله آيات من سورة السجدة « آلم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ، أم يقولون افتراه . بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك . لعلهم يهتدون . »

فلما فرغ انصرف عتبة دهشا معجبا . ورجع إلى قومه بوجه غير الذى ذهب به . وقد ملأ نفسه شعور عجيب بهذا الإيمان المجرد الذى لا رغبة تدفعه ولا رهبة تمنعه .

واشتد الإيذاء والقتل والتعذيب فأذن رسول الله فى الهجرة إلى الحبشة ، فخرج إليها فريق من المسلمين على رأسهم عثمان وزوجه وقد ترك وراءه كل ما يملك فراراً بدينه . ولم تطق قريش أمر هذه الهجرة . فأرسلت إلى نجاشى الحبشة تغريه بهم ، فاستمع النجاشى إلى هؤلاء وهؤلاء . وقرأ عليه جعفر بن أبى طالب صدراً من سورة مريم . فقال النجاشى : هذه كلمات تصدر من النبع الذى صدرت منه كلمات السيد المسيح . وأن هذا والذى جاء به عيسى

ليخرج من مشكاة واحدة ودخل عمر دين الله فأزعج ذلك نفوس قريش ، روحا عاصفة من الحقد والكيد ، أعلن فى أثرها شعراء قريش الحرب فأخذوا يهجون النبى ، والمسلمين أشد أنواع الهجاء وأعنفه .

وأخذ زعماء قريش يترقبون موسم الحج فيذيعون عن محمد ودعوته الأقاويل . وينشرون القول فيه وفى دعوته فى أسواق عكاظ والمجنة، وأخذوا يرمون الرسول بالكهانة. ويتهمونه بالسجع، ولم يقفوا عند ذلك بل اتهموه بالسحر ، وتقولوا عليه بأنه يتلو أساطير الأولين وتعقبوا وفود القبائل محمد عرض عليهم رسول الله دعوته يملأون نفسهم وعقولهم بالشكوك والإتهامات فى محمد وفى دعوته.

ولكن هل ثنى ذلك محمداً عن دعوته : اللهم لا

وأعلنت قريش على معسكر المسلمين المقاطعة الاقتصادية لتقتل المسلمين جوعا وعريا ، ورأت أن ذلك هو الطريق العملى لسحق هذا الفريق من التابعين لمحمد، وكتبوا بذلك صحيفة تعاقدوا فيها

على مقاطعة بنى هاشم ، وبنى عبدالمطلب ، لا يبيعونهم ولا يبتاعون منهم وحوصر المسلمون فى الشعاب أكثر من عامين . فلم يكن لذلك من أثر إلا الاحتمال والصبر وانتظار الفرج وترقب النصر .

ثم وصلت الدعوة إلى ذروة الخطر ، حين اشتد الأمر على الرسول فمات أبو طالب وماتت خديجة فى عام واحد . ووصل إيذاء قريش إلى أشده . ورأى رسول الله على أثر ذلك أن يخرج إلى الطائف عله يجد عند ثقيف نصرة أو منعة .

ولكن ثقيفاً كانت فى لقاء رسول الله أشد من قريش مساءة وإيذاء ، فقد رده أهلها رداً غير جميل ، وأغروا به سفهاءهم وأخذوا يحصبون قدميه الشريفتين بالحصى والطوب حتى دميتا ، فاضطره ذلك إلى حائط بنى ربيعة ، ومن ثم أخذ يدعو ربه فى ضراعة الواثق ، ورجاء المطمئن ، ذلك الدعاء الحار فيقول : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس، ياأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر

الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك أو يحل لك سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

***

وأقام الرسول أياما بنخله ، وكان زيد بن حارثة رفيقه فى رحلته يسأله : كيف تدخل عليهم مكة وقد أخرجوك ؟ فيقول الرسول . يازيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وأن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

فلما انتهى إلى حراء بعث رجلا من خزاعة إلى المطعم ابن عدى ليجيره حتى يبلغ رسالة ربه فأجاره .

وكانت بيعة العقبة الكبرى ومن ثم أذن رسول الله للمسلمين فى الهجرة ، « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا » .

(٢)

كان ذلك عندما رأى رسول الله رؤياه . ورؤياه حق . أنه دخل البيت حاجًّا معتمراً . هنالك أذن فى أصحابه بالحج . وساق الهدى أمامه . وأخذ المسلمون طريقهم ملبين داعين . حتى إذا بلغوا الحديبية على أبواب البلد الحرام خرجت لهم قريش تمنعهم وتحول بينهم وبين الكعبة . وتردهم عنها . ثم تنتهى مع النبى وأصحابه إلى عقد ميثاق عرف بعقد الحديبية . وقد اتفق فيه المسلمون على أن يعودوا عامهم هذا إلى المدينة فإذا أهل عام قابل جاءوا إلى مكة ليؤدوا الفريضة . وتم فى هذا العقد ، الاتفاق على المهادنة ما لم ينقض الاتفاق طرف من أطرافه فتكون الحرب .

وعاد الرسول . وعاد المسلمون . بعضهم راض وبعضهم غير راض ، حتى إذا كانوا فى الطريق أنزل الله عليهم آياته « إنا فتحنا لك فتحا مبيناً . هنا لك عرف المسلمون أن الحديبية هى مقدمة الفتح . وانها بداية النصر .

فلما استدار العام أذّن الرسول فى الناس بأن يتأهبوا لقضاء

عمرتهم . لا يتخلف منهم أحد ممن شهد الحديبية فلم يتخلف من أهلها أحد وهو حي . وساق النبي الهدى . وسار يلبي والمسلمون معه يلبون . والسيوف في القراب فلما أهلت مكة . وشاهد أهلها موكب الرسول ، خرجوا إلى رؤوس الجبال . وتركوا دورهم . وقالوا لا ننظر إليه ولا إلى أصحابه .

ودخل النبي مكة من الثنية التي تطلع على الحجون . وقد ركب دابته القصواء وأصحابه من حوله . فلم يزل يلبي حتى استلم الركن .

وكانت قريش قد تحدثت بأن المسلمين في جهد . وأن حمى يثرب أنهكتهم . فاضطبع النبي بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال: « رحم الله امرءا أراهم اليوم قوة »

فلما انتهى إلى البيت دنا من الركن فاستلمه بمحجنه ، وهو مضطبع بثوبه . وهرول هو والمسلمون في الثلاثة الأشواط الأولى . وكان ابن رواحة يرتجز في طوافه وقد أخذ بزمام الناقة . فقال النبي : قل يابن رواحة : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

* * *

فلما قضى النبي طوافه خرج إلى الصفا . فسعى على راحلته ووقف قريباً من المروة . ثم دخل البيت فلم يزل فيه حتى أذن بلال بالظهر فوق ظهر الكعبة . فلما كان ظهر اليوم الرابع أتى سهيل عمرو وحويطب بن العزى . . رسول الله فى مجلس الأنصار ، وهو يتحدث مع سعد بن عبادة فقالا « لقد انقضى الأجل » .

هنالك أذن النبي أبا رافع بالرحيل ، وقال : لا يمسين بمكة أحد من المسلمين . وكان ذلك ق السنة السابعة من الهجرة .

ومضى اثنان وعشرون شهراً على صلح الحديبية . . عندما نقضت قريش العهد ، وقصد أبو سفيان يثرب يريد الرسول ليستزيد من الهدنة ، فقال له الرسول له « نحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل » وكان النبي قد أمر بالتأهب ليوم فاصل ومضى يدعو ربه دعائه المأثور « اللهم خذ من قريش الأخبار والعيون حتى تأتيهم بغتة »

وتأهب المسلمون واستعدوا وهم لا يعرفون وجهة رسول الله فقد أخفى الرسول بحكمة القائد المحنك خطته .

وكتب حاطب بن أبى بلتعة خطابا طوته امرأة من فرينة

فى صدرها ، وجعل لها ديناراً على أن يبلغه قريشا . وترصد لها على والزبير وهى فى طريقها فأخذ الكتاب وعادا :

وجاءت ساعة الصفر ، وخرج المسلمون يمتطون الخيل ويركبون الإبل فى عشرة آلاف ، فى خمس كتائب ، ومضت القافلة فى طريقها ، والمسلمون يسألون فى كل منزل أين يقصدون ؟ حتى إذا نزل النبى بالعرج . قصد كعب بن مالك خيمة الرسول ليعلم وجهة الركب فقال شعراً ورجزاً .

فلم يزد الرسول على أن يبسم له . فلما بلغوا الأبواء (مكان) ثبت أن الاتجاه إلى مكة . وجاء أبو سفيان فرأى ماراعه وأذهله .. رأى جيش المسلمين فى كتائبه وقوته فأسلم . وعاد يحمل النذير والبشير معا ، إذ قال رسول الله قولته المشهورة : « من دخل المسجد فهو آمن . ومن دخل داره فهو آمن . ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن »

❊ ❊ ❊

وأقبل رسول الله فى كتيبته الخضراء على ناقته القصواء . فلما دلف إلى مكه . مال حتى مست جبهته الشريفة حافة ناقته شكراً لله على نصره .

وأقيمت له الحجون قبة ولم يقبل أن ينزل بيوت مكه . ثم صلى ثمانى ركعات فى ثوب واحد ملتحفا به . ثم لبس سلاحه ومغفراً من حديد . وركب الغضباء (دابة) ومر وأبو بكر إلى جانبه يحادثه ، وعبد الله بن أم مكتوم بين يديه من الصفا والمروة حتى بلغ الكعبة . فتقدم على راحلته فاستلم الركن بمحجنه وكبر فكبر المسلمون لتكبيره ، حتى إذا ارتجت جنبات مكه . والمشركون فوق الجبال ينظرون وكان حول الكعبة بضعة وثلاثمائة صنم مرصعة بالرصاص أعظمها « هبل » فجعل الرسول كلما مر بصنم منها يشير بقضيب فى يده ويقول « جاء الحق وزهق الباطل . »

وطاف النبي سبعا يستلم الركن بمحجنه فى كل طواف وأتى له بقدح من شراب زبيب فرده ودعا بماء من زمزم . وأتى المقام فصلى ركعتين ثم انصرف إلى زمزم وأمر بهبل (صنم) فكسر .

ووقف الرسول على باب الكعبة فقال :

— الحمدلله الذى صدق وعده . ونصر عبده . وهزم الأحزاب وحده. ماذا تقولون وماذا تظنون ؟

قالوا : نقول خيراً . ونظن أخ كريم وابن أخ كريم .

قالوا ذهبوا فأنتم الطلقاء . ألا كل ربا فى الجاهلية أو دم أو مأثرة فهو تحت قدمى هاتين . الاسدانة البيت وسقاية الحاج أن الله اذهب عنكم نخوة إلى الجاهلية . كلكم لآدم وآدم من تراب .

ان الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض . فهى حرام . لا تحل لأحد قبلى ولا تحل لأحد كائن بعدى . لم تحل لى الاساعة من نهار » .

ادعوا إلى عثمان بن طلحة . فلما جاءه سلمه مفاتيح الكعبة ثم جاءه الظهر .فأذن بلال فوق ظهر الكعبة . واجتمع الناس للمبايعة فبايعهم الرسول وقال : « لا هجرة بعد الفتح . »

وجاء النساء فبايعن .

***

ومضى عام :

وأستدار عام آخر ، وقد أسلمت جزيرة العرب ، وكان العام العاشر للهجرة وأذن النبي فى الناس بالحج ، فقدم المدينة فى عدد

كبير من المسلمين يريدون أن يأتموا برسول الله .

وصلى النبي الظهر بذى الحليفة ركعتين . وأحرم عندالصلاة وساق مائة بدنة ، وأصبح بيلملم . ثم أمسى بشرف السيالة ، وصلى الصبح بعرق الظبية ، ثم نزل الروحاء ، ثم أصبح بالأبواء ، وبات بين الثنيتين ، كداء وكدى .

ثم أصبح فاغتسل . ودخل مكة نهار الاثنين الرابع من ذى الحجة . ولما دخل المسجد بدأ بالطواف قبل الصلاة . وطاف راكبا على راحلته فلما انتهى إلى الركن استلمه . وهو مضطبع بردائه وقال :

— باسم الله . الله أكبر .

ثم خرج الرسول إلى الصفا من باب بنى مخزوم . وصعد على الصفا . فكبر سبع تكبيرات ونزل إلى المروة فلما أنصبت قدماه فى الوادى ، رمل . وقال : أيها الناس : « إن الله كتب عليكم السعى فاسعوا » وسعى حتى انكشف إزاره عن فخذه . فلما انتهى إلى المروة فعل بها مثل مافعل على الصفا ، ودخل الكعبة بعد ماخلع نعليه ، فلما انتهى إلى بابها صلى ركعتين بين الأسطوانتين وأقام بمكة الثلاثاء والأربعاء والخميس .

وكان يوم التروية يوم الجمعة فوعظ الناس وقال « من استطاع أن يصلى الظهر بمنى فليفعل » وركب حين زاغت الشمس فى يوم التروية بعد أن طاف بالبيت فصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح بمنى .

ثم أصبح فسار إلى عرفة ، ونزل بنمرة ، فلما زاغت الشمس أتى بطن الوادى فخطب الناس على ناقته فقال .

« إنى والله ماأدرى لعلى لاألقاكم بمكانى هذا بعد يومكم هذا أموالكم ودماؤكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » .

فكانت هذه خطبة الوداع .

صلى الله عليه وسلم وصلاة وتسليما على محمدٍ الرسول ما؟

أنور الجندى

تم بعون الله طبع هذا الكتاب فى رمضان سنة ١٣٧٩هـ
الموافق مارس ١٩٦٠ م بمطابع دار الكتاب العربى بمصر
لمؤسسها ومديرها المسئول : محمد حلمى المنياوى